



أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّئِي

نَشِيدُ الصَّحَرَاءِ الْخَالِدِ

إِعْدَاد
مُحَمَّدُ يُونُسُ فَرَّانَ

الأعلام من الأبناء والشعراء

أَبُو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّي

نَشِيدُ الصَّحَرَاءِ الْخَالِدِ

إعداد

محمد يوسف فران

شبكة كتب الشيعة



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م

مطبعة: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
رقم: ١١/٩٤٤٤ تلخيص : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

مقدمة

استجابة لرغبة طلابنا في وضع دراسة ميسرة عن حياة أبي الطيب وشعره أعددت هذا الكتيب المتواضع توخياً للمنفعة وإرادة في أن يكون لنا دلو بين الدلاء في خضم لجة المتنبي، المترامي الأطراف والبعيد الأغوار.

وقد قسمت العمل في هذه الدراسة إلى ستة فصول تطول وتقصّر حسب مقتضى الحال.

ففي الفصل الأول تحدثنا وبشكل مختصر عن عصر المتنبي. وفي الفصل الثاني تحدثنا عن أبي الطيب منذ أن أبصر النور في الكوفة إلى أن حط عصا الترحال بالقرب من دير العاقول في العراق، بعد أن كان عائداً لملاقة من يحب في بغداد.

وفي الفصل الثالث تحدثنا عن الأهمية التي لاقاها ديوانه إلى أيامنا هذه، مع ما ينطوي عليه هذا الديوان الضخم من شعر، بحيث انقسم الناس حوله ثلاث فرق، فرقة تتعصب له، وأخرى تتعصب عليه، وثالثة قد آثرت الإنصاف.

والفصل الرابع تحدثنا فيه عن فن القصيدة عند المتنبي
والمحنا إلى أنه في بنائها كان يعتمد على وحدة البيت ووحدة
الموضوع في آن معاً، وكان ذلك من خلال قصيدتين،
الأولى، وجدانية، في رثاء جدته، والثانية أول قصيدة قالها
في مدح سيف الدولة، وأشرنا خلال ذلك إلى الفارق في
الأسلوب بين هاتين القصيدتين.

وفي الفصل الخامس أجرينا عرضاً لبعض آراء الأقدمين
والمحدثين من الأدباء والنقاد.

وأما في القسم الأخير فقد عرضنا بعض نماذجه الشعرية .
وليس لنا في النهاية إلا أن نشير إلى أمر مهم وهو أن
الرجل الذي شغل الناس وملاً الدنيا طيلة أكثر من عشرة
قرون، ولم يوفّ حقه من البحث، لا يمكن أن يكون عملنا
على شعره نهاية للمطاف وحسماً للخلاف أو مبدءاً للإنصاف .
النبطية في ٨٩/٢/١

محمد فران

عصر المتنبي

١ - الناحية السياسية :

إن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م، قد خلق في حياة الناس السياسية تحولاً جذرياً هاماً. ذلك أن الأمويين كانوا يحكمون الناس بتأثير من العصبية العربية العرقية التي كان يغلب عليها طابع البداوة التي تمثل، من قريب أو بعيد، امتداداً طبيعياً لمثلُ الجاهليين العليا. وأما العباسيون فقد جعلوا دولتهم إسلامية جامعة لجميع الأجناس^(١) وخصوصاً الذين عاونوهم وشدوا من أزرهم في عملية التخلص من الأمويين. وإذا كان العباسيون قد اعتمدوا هذا المبدأ فقد آثروا إبعاد خصومهم الذين كانوا يظنون أن الخلافة ينبغي أن تكون فيهم وراثية فنشأ عن هذا الأمر تياران: تيار الذين يدعون إلى المتحدرين من ولد علي بن أبي طالب من فاطمة بنت النبي محمد ﷺ ويناصرهم في ذلك الفرس وعرب الجنوب، عامة. وتيار العباسيين وبعضهم فيه السنة والجماعة وأبناء

(١) عمر فروخ. تاريخ الأدب العربي، مجلد ٢ ص ٣٤.

الدولة^(٢)، فتكرست في ذلك عملية شق العالم الإسلامي وبدأت منافذ التشّت فيه ولا تزال حتى بات على ما هو عليه من الضياع وفقدان الهوية الذاتية، عربية كانت أم إسلامية.

ولكي يستتب الأمر للعباسيين، أبعادوا في تنفيذ سلطتهم العنصر العربي واعتمدوا في الفترة الممتدة بين سنة (١٣٢) - (٢٣٤هـ) على العنصر الفارسي ثم تلاه العنصر التركي^(٣). وتعتبر هذه المرحلة من أزهى عهود الدولة العباسية الأصيلة، وأما المرحلة الممتدة من سنة ٢٣٤هـ إلى سنة ٤٤٠هـ فهي مرحلة عصر الدويلات التي انتشرت على ربوع الدولة العباسية الإسلامية وقد أخذت كل منها تنازع السلطة المركزية في بغداد القوة والسلطان ولم يعد للخلافة إلاّ الاسم، وصار رؤساء الجند يتلاعبون بالخلفاء ويقتلون من يشاؤون ويولون من يشاؤون^(٤) «وقد بدأ استعلاؤهم بقتل المتوكل» سنة ٢٤٧هـ فزال عن الخلافة زهوها وسلطانها^(٥). ومن هذه الدول التي استقلت ذاتياً عن مركز

(٢) م. ن مج ٢ ص ٣٤.

(٣) م. ن مج ٢ ص ٣٤.

(٤) محمد علي طباطبا. الفخري في الآداب السلطانية ص ١١١

أحمد أمين. ظهر الإسلام. ج ٢. ص ٢٥٠

ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٥.

(٥) عمر فروخ. م. ن مج ٢ ص ٣٦.

الخلافة، وإدارياً، الدولة الصفارية (٢٥٤ - ٢٩٦ هـ) في فارس، وقد قامت بعدها في فارس أيضاً الدولة السامانية وامتدت إلى ما وراء النهر^(٦).

وفي مصر قامت الدولة الطولونية (٢٥٣ - ٢٩٢ هـ) التي استقل بها محمد بن طغج ولقبه الخليفة العباسي الراضي بالله بالإخشيد^(٧). ولكن الإخشيد هذا لم يلبث أن امتد حكمه إلى الشام والحجاز. وبقي على سدة الدولة الإخشيدية حتى وفاته سنة ٣٣٤ هـ فخلفه مولاه كافور، وبعد وفاة كافور استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨ وبسطوا سلطانهم على الحجاز ومعظم الشام^(٨).

وفي الموصل أسس ناصر الدولة الحسن بن حمدان الدولة الحمدانية سنة (٣١٧ هـ - ٩٢٩ م). وفي سنة (٣٣٣ هـ - ٩٤٥ م) سار سيف الدولة علي بن حمدان وانتزع مدينة حلب من أيدي الإخشيديين وأسس دولة من أزهى الدويلات في التاريخ العربي، كما دافع عن الخلافة وحارب الروم وهزمهم في معارك عديدة. وأنشأ في حلب بلاطاً جمع فيه رجالاً عظاماً كالمتنبي وأبي فراس وأبي الفرج والشمسي

(٦) عبد الوهاب عزام. ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ص ١٤.

(٧) الإخشيد، بالفارسية: السيد.

(٨) عبد الوهاب عزام. م. ن ص ١٥.

وابن خالويه والفارابي . وقد كان سيف الدولة نفسه أديباً وشاعراً ومحباً للأدب وكلفاً به^(٨) .

على أن الدولتين ، الإخشيدية والحمدانية كانتا على طرفي نقيض وهما تختصمان على أواسط الشام ، فمرة كان يمتد حكم الحمدانيين إلى دمشق ومرة يتراجع إلى حمص^(٩) .

وأما الدولة البويهية ، فقد تمكن عماد الدولة ، علي بن بويه من منازعة مرّداويج وإقامة الدولة سنة ٣٢٠هـ . ثم جاء معز الدولة ، أحمد وسار إلى بغداد واتخذ لنفسه «لقب أمير الأمراء» سنة ٣٣٤ ، «ثم خلع الخليفة المستكفي وسمل عينيه واعتقله إلى أن توفي بعد أمده»^(١٠) . ولقد كان حكام هذه الدولة يميلون إلى العلويين ويعتبرونهم أصحاب الحق الشرعيين «لانتماثهم إلى الرسول الكريم فضلاً عن أنهم من سلالة يزدجرد الثالث آخر ملوك ساسان»^(١١) . ولقد فكر معز الدولة أن يعزل الخليفة العباسي ويعين مكانه خليفة علوياً ولكن أصحابه نصحوه قائلين : «ليس هذا برأي فلانك اليوم

(٨) عبد المجيد دياب . أبو الطيب المعتز ، ص ١٠٤ .

عمر فروخ . م . ن ج ٢ ص ٤٠٠ .

(٩) عمر فروخ . م . ن ج ٢ ص ٤٠١ .

(١٠) عمر فروخ . م . ن ج ٢ ص ٤٠١ .

(١١) د . حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسي ، ج ٢ ص ٤٩ .

مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك بأنه ليس من أهل الخلافة، ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه، ومتى أجلس بعض العلويين كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتلك لفعلوه»^(١٢).

إضافة إلى هذه الدول التي ذكرنا، والتي كانت قد وضعت الأسافين الغلاظ في جسم الدولة العباسية، فإن هناك حركات سياسية محضة كانت تحمل الطابع الديني وأهمها الحركة القرمطية الرافضة لسياسة العباسيين. وقد أسس هذه الحركة سنة (٢٧٧هـ - ٨٩٠) داعية إسماعيلي من أهل الكوفة اسمه حمدان قُرْمُط، ثم لم تلبث هذه الحركة أن امتدت إلى شرق الجزيرة العربية وبادية الشام فكثرت عبثهم في أيام رئيسهم أبي طاهر سهِمَا (٣٢١ - ٣٣٢هـ) الذي قطع طريق الحجاج ونزع الحجر الأسود من الكعبة وحمله معه إلى الأحساء. ولكن ابنه سابور رد الحجر الأسود إلى مكانه في مكة سنة (٣٣٩هـ - ٩٥١م)^(١٣).

وقد لقيت الكوفة بلدة أبي الطيب أهوالاً من القرامطة، إذ أغاروا عليها سنة ٣١٢هـ وكذلك سنة ٣١٥ فهزموا في

(١٢) ابن الأثير، م. ن ج ٨. ص ١٧٧.

(١٣) عمر فروخ. م. ن ص ٤٠٤.

المرتين جند الخلافة وأسروا قائده يوسف بن أبي الساج كما اتجهوا إلى بغداد وهددوها ولكنهم لم يدخلوها. ثم عاودوا الكرة على الكوفة سنة ٣١٦هـ، ثم ان هذه المدينة المرموقة في هذه المرحلة بالذات من حيث مكانتها العلمية - إذ أنها كانت في العلم والأدب موازية للبصرة - قد هوجمت مراراً في السنوات ٣١٩هـ و ٣٢٣هـ و ٣٢٥هـ من قبل القرامطة الذين كثر مؤيدوهم في تلك الحقبة من الزمن^(١٤).

إلى جانب حركة القرامطة فقد ظهرت حركات بعض الخوارج الذين غزوا الكوفة سنة ٣١٥هـ وخربوا أسوارها. كما أغار عليها بنو نمير وبنو كلاب وعاثوا بظواهرها فساداً مما اضطر أميرها أن يخرج إليهم فأسروه سنة ٣١٨هـ. وظلت الحال كذلك على حالها من الفوضى والاضطراب السياسي والقلق الأمني إلى أن عاد المتنبى إلى الكوفة وبعد رجوعه من مصر، حيث شهد غزوة من غزوات بني كلاب على بلده ومسقط رأسه فشارك في حربهم، وتتصل بهذه الحادثة قصيدته في مدح دلير بن لشكروز^(١٥).

(١٤) عبد الوهاب عزام. ذكر أبي الطيب بعد ألف عام. ص ١٧.
الطبري. تاريخ الأمم والملوك. ج ٨ ص (٨٢، ٩٠، ٩٣، ٩٥، ١٠٩).
انظر كذلك الكامل لابن الأثير في أمر حوادث القرامطة في السنوات الواردة الملائة.

(١٥) عبد الوهاب عزام. م. ن. ص ١٧.

وفي سنة ٣٢٢ وقبل أن يسجن المتنبّي بستين ظهر رجل ادعى النبوة فتبعه خلق كثير وحارب من خالفه وقتل خلقاً كثيراً. «وفي السنة نفسها قُتل في بغداد أبو جعفر السلمغاني الذي ذهب مذهباً مغالياً في التشيع والتناسخ وحلول الألوهية فيه»^(١٦).

ولقد كان لهذه المرحلة بالغ الأثر على نفس المتنبّي لما لها من أهمية عظيمة في شحذ همة الفتى الناشئ وإذكاء مواهب الفذة وعبقريته الجبارة التي جعلت منه رجلاً كالنصور القشاعم الذين لا يرتضون العيش، وهم يتحدثون الشمس، إلا في الأجواء النقية الصافية.

ففي ظروف هذا القرن، الرابع الهجري، ولد المتنبّي فنشأته آدابه وعركته حوادثه، ورأى أن الدولة العباسية قد بدأت تتنازعها عوامل الانحلال وبدأت عليها مظاهر الشيخوخة والعجز وخصوصاً خلال فترة حياته التي عاصر فيها كلاً من الخلفاء: المقتدر والقاهر والراضي والمكتفي والمستكفي والمطيع، وهؤلاء الخلفاء جميعاً لم يلقوا أي اهتمام من شاعر كالمتنبّي لأنه لم ير فيهم ما يدعو إلى تمجيدهم لخلوّ خلافة كل منهم من الرونق رضى وتقوى

(١٦) عبد الوهاب عزام. م. ن. ص ١٧.

واقتراراً، وذلك لزوال الطاعة عنهم على حد قول ابن الأثير
أثناء حديثه عن حوادث سنة ٣٢٤ حيث لم يبق للخليفة غير
بغداد وأعمالها، والحكم في جميعها لابن رائق وليس
للخليفة.

٢ - الناحية الثقافية :

لا شك أن العلوم، والآداب خاصة، تنتعش وتزدهر في ظل الاستقرار السياسي والأمني والعسكري والاقتصادي والاجتماعي وخصوصاً إذا تهيأ لمثل هذه الأمور رجال قادرون على رصد كل التحركات السلبية التي من شأنها أن تضعف سلطة الدولة وتقودها إلى الاندثار والتضعف والزوال من ناحية وعلى تشجيع كل ما من شأنه أن يدفع بالإنسان إلى الإبداع والعطاء من ناحية ثانية. ذلك لأن الاستقرار يدفع إلى الاهتمام بما يؤمن للإنسان من رغد العيش ومتعة الحياة وسعادتها، فإذا ما تم للإنسان ذلك يلجأ إلى المتعة النفسية والعقلية والجمالية فيكثف بها وينميها فتزدهر العلوم، على أنواعها، وتنشط الآداب، ولكن هذا الازدهار والنشاط لا يتوقف إذا اضطربت الحياة السياسية في أي بلد لأن «نمو العلوم والآداب وازدهارها ثم ذبولها وجفافها يتقلب في أطوار بطيئة مديدة لا تساير الأطوار السياسية».

وإذا كان القرن الرابع الهجري عصر دويلات استقلت عن جسم الدولة الأم ولم يربطها بها إلا الاسم، فإن بلاطات هذه الدويلات كانت ملاذاً للشعراء والأدباء ورجال العلم

والفلسفة واللغة لما يجدونه فيها من تشجيع وتكريم فتفيض نفوس أولئك الشعراء والأدباء بمدح أمراء تلك الدويلات الذين يتنازعون على السلطة والنفوذ، وهم بحاجة ماسة إلى من يدافع عنهم بلسانه كما يدافعون عن أنفسهم بجميع ما يمتلكونه من قوى عسكرية وبشرية ومادية، فالشاعر لسان حال الأمير ومادحه ورافع اسمه بين الناس فيذيع صيته بعد أن يكون مغموراً.

وبتعدد الأمراء والملوك يتعدد الشعراء ويكثر، ولكن كثرتهم في القرن الرابع الهجري لا تدل على جودة إنتاجهم، كما كانت الحال في القرن الثالث الهجري على يد أبي تمام والبحري وأبي نواس، اللهم إلا إذا استثنينا بعض الشعراء مثل أبي الطيب وأبي فراس وغيرهما من شعراء هذا القرن.

«وأما الكتابة فقد كانت في هذا القرن - الرابع الهجري - أوسع موضوعاً، وأصفى أسلوباً وأبعد فكراً وأوضح منطقاً... فانتعش المجال في النثر لذوي الأفكار الثاقبة... فزينوه وجملوه بالتقسيم والسجع فنبغ في هذا القرن أئمة الكتاب في المشرق والمغرب».

وممن نبغ في هذا القرن شعراء وأدباء كثيرون، ونخص

من شعرائه بالذكر الشريف الرضي ومهيار الديلمي وأبا فراس
الحمذاني وابن نباتة السعدي وأبا العلاء المعري وأبا الحسن
التهامي والسري الرفاء، كما نخص من أدبائه وكتابه: ابن
العميد وابن عباد والصابي والهمذاني والخوارزمي وأبا حيان
والأمدي وأبا علي القالي صاحب الأمالي وأبا الفرج
الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني والجرجاني صاحب
الوساطة، والثعالبي النيسابوري صاحب يتيمة الدهر والصولي
صاحب كتاب الأوراق.

وأما في اللغة فقد نبغ الزجاج والأخفش ومحمد بن عرفة
ونفطويه، وابن مجاهد، وابن دريد، وابن السراج وابن
الأنباري والأزهري وابن جني والسيراني وابن خالويه
وغيرهم...

ولأدب هذا العصر خصائص مميزة حيث أنها لم تقتصر
على الجوانب الفنية القائمة على الصناعة والتأنق في اللفظ
والصورة بل تعدته إلى التأليف الذي يميل إلى النهج العلمي
أيضاً.

ولقد رق أسلوب الشعر ولان وأصبح على متناول جميع
أفهام الناس مع ما يحمله من الطرافة والظرافة، فلنستمع إلى

قول أبي بكر الخوارزمي يُعَرِّضُ بني العباس الذين يمنحون
الناس ألقاباً لا أموالاً:

ما لي رأيتُ بني العباس قد فَتَحُوا
من الكُنى ومن الألقابِ أبواباً
مَلُ الدِراهمُ في كَفْيِ خليفَتِنَا
هذا فأنفقَ في الأقسام ألقاباً

على أن الجانب الأكبر من شعر القرن الرابع الهجري ظل
في البلاطات محافظاً على أسلوب الجاهليين لما يحمله من
خشونة البداوة في أغراضها المألوفة كما يظهر من خلال شعر
المتنبي والشريف الرضي والمعري.

هذا من الناحية اللفظية، وأما من الناحية المعنوية فإن
للبيئة تأثيراً كبيراً على الأدب، ففي بلاط البويهيين تبرز في
الشعر نزعة التشيع، وفي بلاط سيف الدولة تبرز نزعة القوة
في مقارعة أعداء الأمة، وفي بلاط كافور تبرز نزعة التزلف
والمراوغة... فقد كانت هذه البلاطات صروحاً فسيحة
لازدهار الشعر والأدب.

وبروز نزعة تمجدح الفرس كان لا بد من معارضتها ونبذها
كقول المتنبي وهو يندد بكل ما هو غير عربي في قوله:
إنما الناس بالملوك وهل تصلحُ عربٌ ملوكُها عجم

كما نرى بديع الزمان الهمذاني ينكر على العربي احتفائه
بالأعياد الفارسية بقوله : «إن عيد الوقود لعيد إفك وإن شعار النار
لشعار شرك وما أنزل الله بالسّدق^(١) سلطاناً ولا شرف نيروز النار» .

وإذا كنا نرى في أدب القرن الرابع الهجري نوعي التشيع
المعتدل والمتطرف فإننا نرى فيه اتساع نطاق الوصف في
الطبيعة فبرز فن الزهريات، واشتهر ما يشار إليه هنا
«روضيات الصنوبري» وقصيدة المتنبي في شعب بوان خير
شاهد على ما نقول. وكذلك اتسع القول في الشعر الوجداني
في السياسة والأخلاق وأحاديث النفس، فقصائد المتنبي
مثلاً، فإن كانت مدحاً أو هجاء أو رثاء، فإنما نستطيع أن
نستقرئ منها أخلاق سيف الدولة وكافور وأبي شجاع فاتفك،
«وديان اللزوميات لأبي العلاء مقصور، على هذا الجانب من
الحياة الاجتماعية، على النقد الاجتماعي بأوسع معانيه وأدق
دلالاته» .

كما اتسع فن الاخوانيات في الشعر والأدب وهو عبارة عن
الرسائل التي يتبادلها الأدباء شعراً ونثراً، ومن الاخوانيات في
الشعر القصائد التي كان يبعث بها من أسره أبو فراس

(١) السّدق: ليلة الوقود، كان الفرس يشعلون فيها النار العظيمة والشموع .

الحمداني إلى ابن عمه سيف الدولة يحثه فيها على أن يخلصه من الأسر كما يحثه فيها على محاربة الأعداء. وهذه الإخوانيات قطع وجدانية خالصة لأنها تحمل، بين المتراسلين، صوراً من العتاب والتشوق واللوم والشكر... وقد تناول أحياناً بحثاً أو نقداً أو نصحاً.

واتسع كذلك فن القصص في أغراض مختلفة وأساليب متنوعة «ويقصد به المثقفون تحيلاً على النقد أو النصح أو إبرازاً لخصائص أدبية ومقدرة شخصية، أو كشفاً عن جانب من جوانب الفكر في معالجة القضايا العامة، كما كانت منه الحكاية العادية لتسلية جمهور الناس». ومن القصص والحكاية تحدد فن المقامة الذي أتى به بديع الزمان الهمداني (٣٥٨ - ٣٩٨هـ) حيث أننا نجد في مقامته تسلية ومتعة لما تحمله مقاماته من الخصائص أهمها: المجلس والراوية والمكدي والملحة، أو النكتة أو العقدة، والموضوع واسم المقامة وشخصيتها والصناعة فيها والشعر الذي يتخللها. «فالمقامة فن الفكاهة وهي رواية الحكاية في حال من المرح مع الإشارة إلى ما يستطيعه الناس عادة من اللهو والجنس والهزء والإضحاك والإطراف».

حقاً إن العصر العباسي والقرن الرابع منه خاصة من أزهى العصور الإسلامية علماً وأدباً وحضارة إذ نضجت فيه مواهب

العربي التي تفتحت على أثر احتكاكه بالثقافة الهندية
والفارسية واليونانية، مع رجوع معمق إلى مصادر الذات
حيث حركت فيه عوامل العداء المستحكم الذي لاقاه من غير
العرب الذين جعلوا من العروبة والإسلام فيها حطاماً.

٣ - الحياة الاجتماعية :

إن السلطة الفعلية في القرن الرابع الهجري كانت فعلياً بأيدي آل بويه الفرس الذين امتد حكمهم من فارس إلى بغداد نفسها الأمر الذي جعلهم قادرين على التصرف بزمam الأمور والتحكم برقاب العباد، كما أناطوا بأنفسهم أمر جباية الأموال التي اعتمدوا، في الحصول عليها، أبسط السبل وأرخصها إذ كانوا يقطعون الأرض والمناصب لمن يدفع لهم أكثر في كل عام. «وإذا كان الوزير يأتي إلى منصبه من هذه الطريق في أكثر الأحيان، فإنه كان يسلك في تولية أعمال الدولة مثل هذا المسلك، وقد يُعَيَّنُ الوزير عاملاً (جائباً للأموال) ويستوفي منه مبلغاً مقدّماً، ثم بعد أمد طويل أو قصير يُعَيَّنُ عاملاً آخر مكان العامل الأول ويستوفي منه مبلغاً جديداً»، الأمر الذي جعل الفساد يستشري «حتى شمل الحسبة والقضاء» وهما أهم ما يرتبط في حياة الناس الاجتماعية ويعود بالنفع إليها، فما حال الناس إذا عمت الفوضى والسرقة والغش والرشوة والتلاعب بمقدرات حياة المواطنين ومكاسبهم التي ينبغي على النظام الإداري أن يهتم

بها ويحافظ عليها حتى يعم الرخاء وتكتمل شروط سعادة الإنسان.

والذي ساهم مساهمة فعالة في توسيع صدع الدولة العباسية كثرة الأجناس المتصارعة، في العراق، على مواقع النفوذ. فلو تأملت هذا المزيج السكاني من العرب والفرس والأتراك والزنج والآراميين والروم، لوجدت أنه من الواجب أن يجتمع هؤلاء الناس على القاسم المشترك الذي ينبغي أن يجمع بينهم ويعملون دونه للمحافظة على روح الاستمرار والبقاء وهم في ذلك إنما يحترمون الغاية الإلهية التي دعا إليها الإسلام في عميق تعاليمه فيجتمعون حولها فتتصر بذلك إرادة العيش المشترك وتشمل السعادة الإنسان ولكنهم، أبداً، لم يدركوا ذلك إذ كانت تحركهم الشهوات وتدفعهم الأهواء إلى ارتكاب أخط الحماقات وأحقرها، وخصوصاً أن بني بويه هؤلاء كانوا يحرضون الناس على التمرد على سلطة الخلافة في الوقت الذي كانوا يعملون فيه تحت سلطتها فتعمقت الخلافات بين السنة والشيعة وانتشرت الفتن التي عشت بلحمة المجتمع وتماسكه.

إضافة إلى هذا النزاع المذهبي فإن هناك نزاعاً خفياً بين المسلمين والنصارى واليهود والبوذيين، وكانوا جميعاً يناصبون السلطة السياسية العداء عن طريق الاتجاهات

الخاصة التي يؤمنون بها.

وعلى خط متعاكس مع ما رأينا من الصراعات فإننا نجد أن هذا القرن «قد شهد حضارة مزدهرة وترفاً بالغاً في المطعم والملبس والسكن، فقد غلب طراز الحياة الفارسي على هذا العصر غلبةً ظاهرة عامة شاملة وأصبحت الأعياد الفارسية كالنيروز^(١) والمهرجان^(٢) أعياداً للعامّة والخاصة من الفرس وغير الفرس».

وانتشر اللّهُو في الأوساط المترفة وتعددت وجوهه، وقد ضخم الأدباء والشعراء مظاهر هذا اللّهُو مع ما يحمله من الاستهتار والمجانة والعبث، وهم يشيرون في ذلك إلى أن عوامل اللّهُو موجودة في كل زمان ومكان ولكنها تستبصر في عصور القوة السياسية ثم تظهر وتشتهر في عصور الضعف السياسي، وهذا ما جعل اللّهُو ظاهراً شاملاً منتشرًا في القرن الرابع الهجري حينما فقد العرب سلطانهم السياسي وتقسّم الحكم الإسلامي بين دويلات متنازعة فكان اللّهُو خيراً متنفس للناس.

أما إذا جئنا نتحدث عن الثروة بين الناس فنجد الغنى الفاحش من جهة والفقر المدقع من جهة ثانية، فالثروات

(١) النيروز: ٢١ آذار وهو عيد رأس السنة الفارسية.

(٢) أول الخريف.

كانت موزعة توزيعاً غير عادل بسبب الظلم والطمع والأنانية، فقد «كان هنالك أفراد من رجال الدولة ومن ذوي الجاه والسلطان في المجتمع يملكون الملايين ويسرفون في المآدب والملاهي بينما كان ثمت ملايين من الناس لا يجدون أحياناً ما ينفقون ولا ما يشبعون به».

أبو الطيب المتنبي

اسمه - مولده - كنيته - لقبه - نسبه - حياته

هو أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجُعفي، الكندي، الكوفي من بني جعفر بن سعد العشيرة ابن مَذْجَج من كهلان من قحطان من عرب الجنوب اليمينيين.

وكانت ولادته في حي بني كندة في الكوفة سنة (٣٠٣هـ - ٩١٥م). ولقد وصف الكوفة محمد العطاردي وهو بمجلس عبد الملك بن مروان بقوله: «والكوفة سفلت عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وحرها، فهي مريثة مريعة، إذا أتتنا الشمال ذهب مسيرة شهر على مثل رضراض^(١) الكافور، وإذا هبت الجنوب جاءتنا ريح السواد ووروده وباسمينه وأترنجه، ماؤنا عذب وعيشنا خصب»... فمن هذه المدينة الجميلة الممرعة آنذاك انطلق أحمد بن الحسين وأطل على الدنيا بعد أن قضى في ربوعها سني حياته الأولى وهو يتردد فيها على محالّ الوراقين - وهم أشبه بمكتبات اليوم - يجمع العلم من أوراقهم بعد أن تعلم القراءة والكتابة

(١) الرضراض: ما دق من الحصى.

في كُتَابِ للعلويين، وخصوصاً أن الكوفة كانت تراحم البصرة
علماً وثقافة وأدباً في تلك الآونة من الزمن.

أما كنيته فأبو الطيب وأما لقبه، بالمتنبي، فقد قيل فيه أمور
كثيرة، فقد قال القاضي أبو الحسن الهاشمي عندما ذكر
المتنبي: «كنت أعرف أباه بالكوفة، شيخاً يسمى عبدان
يستقي^(١) على بعير له، وكان جعفياً صحيح النسب. وقد
كان المتنبي لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوي
حسني، ثم ادعى بعد ذلك النبوة، ثم عاد يدعي أنه علوي
إلى أن أشهد عليه، بالشام، بالكذب بالدعوتين، وحُجِسَ
دهراً طويلاً، وأشرف على القتل... ثم استتيب وأشهد عليه
بالتوبة وأُطلق». ثم قال أبو علي بن أبي حامد: «سمعت
خلقاً بحلب يحكون - وأبو الطيب بها إذ ذاك - أنه تنبأ في
بادية السماوة ونواحيها إلى أن خرج إليه لؤلؤ أمير حمص من
قبل الإخشيدية فقاتله وأنفره وشرده من كان اجتمع إليه من
كلاب وكلب وغيرهما من قبائل العرب وحبسه في السجن
حبساً طويلاً فاعتلّ وكاد أن يتلف حتى سئل في أمره فاستتابه
وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها ببطلان ما ادعاه ورجوعه إلى
الإسلام... وأطلقه». وقال أبو عبد الله معاذ بن اسماعيل
اللاذقي: «قدم أبو الطيب اللاذقية في سنة نيف وعشرين

(١) يستقي: يبيع الناس الماء فسمي بالسقاء.

وثلاثمائة وهو لما عذر^(١) وله وفرة إلى شحمتي أذنيه فأكرمه وعظمته لما رأيته من فصاحته وحسن سَمْتِهِ. فلما تمكن الأنس بيني وبينه وخلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته واقتباساً من أدبه قلت: والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير! فقال ويحك أتدري ما تقول؟ أنا نبي مرسل! فظننت أنه يهزل... فقلت له ما تقول؟ فقال: أنا نبي مرسل... قلت تفعل ماذا؟ قال: أملأ الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً... وقال التنوخي عن أبيه «فأما أنا فأني سألته بالأهواز في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة عند اجتيازه بها إلى فارس في حديث طويل جرى بيننا عن معنى «المتنبي» لأنني أردت أن أسمع منه هل تنبأ أم لا؟ فأجابني بجواب مغالط لي، وهو أن قال: هذا شيء كان في الحداثة أوجبته الضرورة فاستحييت أن أستقصي عليه وأمسكت».

وعندما حاول ابن خالويه، في حضرة سيف الدولة أن يتهمه بالكذب وينعته بالجهل لادعائه النبوة أجابه المتنبي: «أنا لست أَرْضَى أن أُدْعَى بهذا، وإنما يدعوني به من يريد الغض مني، ولست أقدر على الامتناع».

إن نزع الحداثة وطيشها قد يدفع بالفتى الطموح إلى أن يندفع إلى أبعد من هذا بكثير، ونحن بدورنا لا نريد أن

(١) عذر: نبت الشعر على جوانب لحيته.

نناقش مثل هذه الأمور طالما أن المتنبي نفسه قد اعتذر عنها وردها إلى الحداثة من ناحية، ولا يرى أنه قادر على ردِّ ما ينعته به الناس من ناحية ثانية، ومن ناحية ثالثة لا يمكن أن تلحق صفةً ما بإنسان إذا لم يكن هناك باعث على إذاعة تلك الصفة ونشرها.

وأما نسبه، فقد مر بنا قول أبي الحسن الهاشمي «كنت أعرف أباه بالكوفة، شيخاً يسمى عيدان»^(١) السقاء يستقي على بعير له، وكان جعفياً صحيح النسب». والمتنبي، وكما عرفت من اسمه، يعود بنسبه إلى عرب اليمن لأن جُفْعَى، جده الأعلى، ينتمي إلى قحطان جد اليمنيين. هذا من جهة نسب أبيه الذي يفاخر به بقوله:

أنا مَنْ بَعْضُهُ يَفُوقُ أَبَا الْبَا
حِثِّ وَالنَّجْلِ بَعْضُ مَنْ نَجَلُهُ

وهو يريد بهذا البيت أن أباه أعلى منزلة ونسباً من أبي الباحث الذي أعياه البحث عن نسب المتنبي لأن الولد بعض من الوالد.

وأما جدُّه فكانت همدانية وهي من نساء الكوفة الصالحات اللواتي لا مجال للطعن في نسبهن وشرفهن.

(١) عيدان وليس عيدان السقاء كما جاء في تاج العروس.

ولقد كان المتنبي كَلِيفاً بأمر هذه المرأة الطاهرة التي كانت قد شملت حفيدها بكل عناية وحنو. وعندما توفيت هذه المرأة الصالحة رثاها المتنبي بقصيدة عصماء حدد لنا فيها مقدار العلاقة الطيبة التي تربطه بها علّه يستطيع في ذلك أن يرد لها بعض الجميل الذي أسدته إليه في طفولته «كونها له أمّاً» ولكن القدر كان أقوى من تطلع المتنبي إلى القيام بعملية الوفاء لها، كما أن أعداءه أنذروه في حال دخوله الكوفة فآثر الذهاب إلى بغداد وقلبه يتفطر لوعة وأسى لأنه لم يُلْقِ نظرة الوداع الأخير إلى تلك الأم الجليلة الوداعة.

وإذا كان المتنبي صحيح النسب، أباً وأمّاً، فهو بهذا عربي قح لا غبار على نسبه وخصوصاً أن أجداده من الطرفين مشهود لهم بالكرم والشجاعة والمروءة والطموح ولا غرو إذا قال فيهم مفتخراً بنفسه:

وإني لِمِنْ قَوْمِ كَأَنَّ نُفُوسَهُمْ
بِهَا أَنْفٌ أَنْ تَسْكُنَ اللَّحْمَ وَالْعَظْمَ
أما المتنبي نفسه، فلم نر من خلال شعره أنه تحدث عن نسبه ولا رضي أن يتحدث عنه صراحة وجهرًا، وعندما سأله والد التنوخي عن ذلك قال: «أنا رجل أخبط القبائل وأطوي البوادي وحدي ومتى انتسب لم آمن أن يأخذني بعض الأعراب بطائلة بينه وبين القبيلة التي انتسب إليها. وما دمت

غير منتسب إلى أحد فأننا أسلم على جميعهم ويخافون
لساني». وإذا تأملنا القصيدة التي مدح بها أبا العشائر
الحمداني:

أنا ابن من بعضه يفوق أبا البا
حث والنجل بعض من نجله
إن الكذاب الذي أكاذ به
أفونٌ عندي من الذي نقله
فلا مبالٍ ولا مداحٍ ولا
وإنٍ ولا عاجزٍ ولا تُكله
فمن خلال هذه الأبيات نرى أن قوماً قد افترروا عليه وكادوا
إليه من جهة نسبه فرد إليهم كذبهم وادعاءهم بأن آباءه أعلى
منزلة مما يتصورون فهو لذلك غير مبال بهم وقادر على
الصمود في وجه التحديات بنفسه دون اللجوء إلى الاستعانة
بأحد مهما سما وعلت منزلته. وهو نفسه أولى بالفخر
والاعتداد، وهو في ذلك مواطن الفخر لدى آبائه وأجداده،
وبه مجدهم وشرفهم كما نرى من خلال قوله:

ما بقومي شرفٌ بل شرفوا بي
وبنفسٍ فخرت لا بجوددي
وبهم فخر من نطق الضاد
وعوذ الجاني وغوث النطير

أو قوله :

ولستُ بقانعٍ من كلِّ فضلٍ
بأنْ أغزى إلى جدِّ همامٍ
وفي رثاء جدته يقول :

ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كونك لي أما
فهو هنا يرى أن قيمة جدته لم تسمُ إلا لأنه يعتبرها أما له .
وإذا كان المتنبّي لم يصرح بنسبه علانية فهل نستطيع أن
نلمس صدق انتمائه إلى القبائل اليمنية من خلال مدحه
لشجاع بن محمد الأزدي وعلي بن أحمد الطائي وشجاع بن
محمد الطائي ، وعبيد الله بن يحيى البحتري وأخيه
أبي عبادة ، أو من مدحه للتنوخيين في اللاذقية ومنهم علي بن
إبراهيم التنوخي ؟ الذي قال فيه ؟ :

أنسي السكونَ وحَضْرَمَوْتَ ووالدتي وكِنْدَةَ والسَّيْعَا
أو من شعره في تفضيل اليمن على خِندَف في قوله :
قضاة تعلم أنني الفتى
الذي أدْخِرْتُ لصروف الزمانِ
ومجدي يدلُّ بني خِندَفِ
على أن كلُّ كريمٍ يمانِي

أو في مدح عبيد الله بن يحيى البحتري يقول:

كفى بأنك من قحطان في شرف
وإن فخرت فكل من مواليك

أو في مدح أخيه أبي عبادة البحتري يقول:

قد كنتُ أحسبُ أن المجد من مضر
حتى تَبَخَّرَ فهو اليوم من أدد
وهل يمكن أن نعتبره مضرياً من خلال مدحه لأبي
الحسين علي بن أحمد المُرِّي في جبل جرش؟ في قصيدته
التي مطلعها:

لا افتخارُ إلا لمن لا يضام
مدركُ أو محاربُ لا ينامُ
إلى أن يقول:

إنما مرَّةٌ بنُ عوفٍ بنِ سعيدٍ
جمراتُ لا تشتهيها النعام
ولا يضير المتنبئ سواء انتسب إلى قحطان أو إلى عدنان
وهو العربي البدوي القح العالي الهمة والنفس المتسامية
الظموحة إذ يقول:

همتي همَّةُ الملوك ونفسي
نفسُ حرٍّ ترى المذلَّةَ كفرًا

أما حياته فيمكن تقسيمها إلى أربع مراحل: المرحلة الأولى تمتد من سنة ٣٠٣هـ إلى سنة ٣٣٧هـ في العراق والشام، والمرحلة الثانية من سنة ٣٣٧هـ إلى سنة ٣٤٦هـ في حلب والمرحلة الثالثة في مصر من ٣٤٦ إلى سنة ٣٥٠هـ، والمرحلة الرابعة في العراق وفارس من سنة ٣٥٠هـ حتى وفاته سنة ٣٥٤هـ.

المرحلة الأولى من حياة المتنبى :

(٣٠٣ - ٣٣٦هـ)

جاء في يتيمة الدهر للشعالبي أن المتنبى ولد بالكوفة سنة ثلاث وثلاثمائة، وأن أباه سافر إلى بلاد الشام، فلم يزل ينقله من باديها إلى حضرها، ومن مدرها^(١) إلى ويرها^(٢) ويسلمه^(٣) في المكاتب ويردده في القبائل، ومخايله^(٤) نواطق^(٥) الحُسنى عنه، وضوامن^(٦) النجج فيه، حتى ترعرع أبو الطيب وشعر وبرع.

ومن هنا قيل: «وكل إناء بالذي فيه ينضح» إذ أن علائم النجابة والعبقرية والذكاء قد بانت على أحمد بن الحسين منذ نعومة أظفاره ونما على حب العلم في بلدة الكوفة وقد كانت منارة علمية يؤمها الناس من كل حذب وصوب فكيف

(١) المدر: الحضر سكان المدن المبنية من الصخر والطين.

(٢) الوير: أي أهل الوير وهم الذين يسكنون خيام الشعر.

(٣) يسلمه: ينزله ويدخله.

(٤) مخايله: علائمه وسماته.

(٥) نواطق: مخبرة

(٦) ضوامن: من ضمن: كفل وتعهد.

لا يستفيد منها ويعب من علمها الجم واحد نبيه كالمتنبي الذي قصد كُتُابها^(١) ونهل منه كل ما توصلت إليه حضارة القرن الرابع الهجري من تنوع وغنى في شتى أنواع العلوم والفنون الأدبية واللغوية التي نهياً لها جهابذة كبارهم في الحقيقة قمة الهرم الحضاري الضخم الذي تمخضت عنه عبقرية المتنبي الذي استطاع أن ينفذ إلى أصول تلك الثقافة العلمية والأدبية واللغوية، بفضل ما أوتيته من القدرات الخلاقة المبدعة من ناحية، ومن ناحية ثانية بفضل اعتماده على أولئك الجهابذة الأعلام ونخص منهم: أبا عمر الزاهد وأبا نصير ونفطويه ودرستويه وأبا بكر محمد بن دريد الذي يعتبر خاتم أدباء ذلك العصر، وأبا القاسم عمر بن سيف البغدادى وأبا عمران موسى.

إن معرفة المتنبي بأولئك العلماء الأجلاء وغيرهم قد جعلت منه أديباً كبيراً ولم يكن في وقته من يدانيه في علمه وشعره وأدبه.

لقد أكد الرواة أن تأصيل ثقافة المتنبي وعلمه كانت في الكوفة وحدها وخصوصاً في كُتُاب العلويين الذي لاقى فيه المتنبي كل عناية واهتمام حيث لُقِّنَ فيه ثقافة خلقية عالية حركت في نفسه مكامن الطموح فاندفع يطلب المجد

(١) الكتاب: المدرسة البدائية.

والرئاسة في الوقت الذي لم يعد فيه أي قيمة للإنسان المثال
إذ أن الأمر قد أفلت من أيدي أصحابه القادرين على
المحافظة على أمور الناس ورعاية حقوقهم، الأمر الذي جعل
البلاد تعيش في جو من الفوضى في ظل غياب القائد
الحازم حيث عمت الاضطرابات وانتشرت الفتن ولم يعد
يعتزل في نفوس الناس عموماً غير القلق والخوف حيث لم
يبق من الخلافة العباسية الإسلامية إلا اسمها، وَغُزِيَتْ
الكوفة أكثر من مرة من قِبَل القرامطة كما غزيت معظم المدن
مما اضطر الناس إلى التزوح عن مدنها وقراها وقد يُظن في
هذا المجال أن المتنبّي قد نزح إلى بغداد ولم يكن معه غير
خمسة دراهم، وبينما كان يتجول الفتى الناشئ في أسواق
تلك المدينة العامرة رأى رجلاً يبيع خمس بطيخات فطلبها
منه المتنبّي فأبى الرجل أن يبيعها له إلا بعشرة دراهم، وإذا
بشيخ يمر فناداه البائع قائلاً: أسمح أن أحمل هذا البطيخ
إلى بيتك؟ فقال الشيخ: كم ثمنه؟ قال: خمسة دراهم فقال
الشيخ لا بدرهمين فقط، فحملها له. والمتنبّي يتعجب من
ذلك قائلاً للبائع: اعطيتك خمسة دراهم وبعته بدرهمين
محمولاً؟ فأجابه البائع: اسكت هذا يملك مئة ألف دينار.
لقد كان لهذه الحادثة أثر عظيم على نفس المتنبّي حيث
أنمت عنده سعيه الحثيث نحو المال وحب الرياسة وكره

الناس، وفي ذلك يقول:

فلا مجْدَ في الدنيا لمن قل مألُه
ولا مال في الدنيا لمن قلَّ مجْدُه

إذا كان أحمد بن الحسين قد نهل ما نهل في الكوفة، من العلم والثقافة، من كتابها وعلمائها، فإنه قد نمت عنده رغبة حب الدرس والتحصيل فاعتمد، في سبيل ذلك، على نفسه التواقة إلى العلى، فكان يجلس آخر النهار، وبعد أن يفرغ من تناول الطعام، إلى كتبه ودفاتره يدرس وينقب حتى يمضي من الليل أكثره، وكانت تلك عادته في كل ليلة - على حد ما جاء في الصبح المنبي .

وهو إلى ذلك كان كثير الاطلاع، ويعمل بشكل دائم على تلقف العلوم واستلهاها أنى وجدها. ومن جملة ما كان يطالعه ويهتم به ديواني الطائيين - أبي تمام والبحتري - ويستصحبهما معه في أسفاره. وإذا سئل مرة هذا البيت مثلاً أخذت معناه من قول الطائي فيقول: «الشعر جادة وربما وقع حافر على حافر». وإذا كان المتنبي يجحد ديواني الطائيين فهذا يعود إلى قصور منه لأن المطالعة من حقه وبدونها لا يمكن للأديب أو الشاعر أن يبني صرحه الثقافي ويصقل قدرته الفنية ويشحذ موهبته الأدبية. وذلك لأن الشاعر الحق

قبل أن يكون شاعراً، عليه وبشكل جازم أن يلم بإنتاج من سبقوه ويعمل على تجاوزهم في عطائه حتى يكون من المبدعين .
ولعل أوائل شعر المتنبي تدل دلالة قاطعة على أن مواهبه قد تفتحت وهو ما زال صبيّاً في كتاب الكوفة، وفي ذلك قوله :

لا تحسن السوفة حتى ترى
منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة
يعلمها من كل وافي السبيل

وليس غريباً على المتنبي أن يقول مثل ذلك، ونحن قد ألمحنا بإيجاز إلى منابع تربيته الشخصية، وظروف عصره السياسية والفتن الدامية التي كانت تعبث فيه؛ فمن أجل ذلك كله نرى أن شاعرنا كان صدى لذلك العصر وهو يرسم، على حداثة سنه، مثل تلك الصورة الدامية التي تجعله يطمح إلى الجهاد والثورة ضد سياسة عصره الرعناء التي خلقت فيه نفسية متوترة نائرة .

ولعل الفتى الناشئ ببعيد بصيرته أحسن أنه من الواجب أن ينطلق إلى البادية ليفيد منها ما يشاء - وعلى عادة من سبقوه - ويتنفع من مشاهدة الأعراب لخلو ألسنتهم من العجمة التي

عمت قرى العراق، فمكث بها طويلاً، وعاد بعد سنين بدوياً
فحاً بعد أن أحاط بشكل دقيق «باللغة والعلم الواسع بأيام
العرب ومواقفها وأنسابها» وغير ذلك مما له أثر بالغ في إنماء
مواهب الفتى الفنية والإبداعية.

أما انصراف المتنبي في تلك الأونة عن مدح رجال الحكم
وعلى رأسهم الخليفة الذي كان العوبة في أيدي بني بويه،
فيمكن أن يعود إلى أمور عديدة أهمها:

أ - إن نزعة المتنبي العلوية كانت تأبى عليه أن يمدح
الخليفة العباسي أو يتصل به على الأقل لأنه لا يمثل الوجه
الشرعي للحاكم المسلم.

ب - إن شاعريته وتساميه تأبيان عليه أن يمدح أناساً قد
ابتعدوا «عن جد الأمور» وانصرفوا إلى اللهو والعبث حيث
كانت الغيرة والشقاق تدبان في نفوس الناس فيحتكمون غالباً إلى
السيف أو إلى المراوغة فتزهق الأرواح أو تهدر الكرامات بإهراق
ماء الوجوه.

ج - إن بني بويه، وهم ذلك الجسم الغريب، عن أرض
العرب، كانوا سبب هذا التشرذم والضياع وأداته.

«وإذا كان المتنبي لم يجد في حكام العراق من يستأهل
المدح والثناء فإنه وجد فيهم الشخصية المتخاذلة التي نفرته

من الملوك حتى وجد الخير كل الخير في البعد عنهم وعدم لقائهم، وإعلان الحرب عليهم بشعره نرى المتنبي معه كثير الاحتراس بذكر أي واحد منهم بهجاء صريح منعاً للعقوبة والانتقام.

أما حال المتنبي المادية، فإن الرواة لم يتكلموا عنها تصريحاً أو تلميحاً وإنما نستطيع أن نستقرئها من خلال شعره حيث يقول:

أَيْنَ فَضْلِي إِذَا قَنِعْتُ مِنَ الدَّهْرِ
بِعَيْشٍ مُفْجَلٍ التَّنْكِيدِ
ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزِّ
قِي قِيَامِي وَقُلْ عَنْهُ قُعُودِي

أو قوله وهو يخاطب نفسه التي تدفعه إلى المجد والشهرة ولكن بشكل رخيص وبدون تعب وتضحية:

تَرِيدِينَ إِذْرَاكَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً
فَلَا بَدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبْرِ النُّحْلِ

أو قوله كذلك:

أَذَاقَنِي زَمَنِي بِلَوِي شَرَقْتُ بِهَا
لَوْ ذَاقَهَا لَبَكَّى مَا عَاشَ وَأُنْتَحَبَا

ألا ترى في قوله هذا مقدار المرارة التي يعانيتها المتنبي من ظلم الزمان وجوره؟ ذلك أن الزمان لو تجرد إنساناً يحس ويشعر وذاق تلك البلوى لقضى العمر منتحباً باكياً.

لقد ضاق المتنبي ذرعاً في العراق، فيمم وجهه شطر الشام عله يجد فيها ما يؤنس ويخصب. وما كاد يصل إلى اللاذقية، سنة ٣٢٠هـ حتى نسبت إليه قصة النبوة ودخل من أجلها السجن بأمر من عامل الإخشيد الذي ما لبث أن استتابه وأطلق سراحه بعد أن ذاق، المتنبي، الأهوال ورأى الموت رأي العين لما ساموه إياه من ألوان العذاب المختلفة. وبعد خروجه من السجن هام على وجهه وأوشك أن يفقد الأمل لولا أن حط عصا الترحال في حضرة بدر بن عمار الذي أحيا في نفس أبي الطيب ميت الأمل سنة ٣٢٨هـ.

لقد وجد المتنبي في بدر رجلاً عربياً شهماً وشجاعاً وكريماً، طيب النفس، كارهاً للعجم، فذ الرجولة، فبقي في جواره، بطبرية، التي كان والياً عليها من قبل ابن رائق إلى أوائل سنة ٣٣٣هـ.

وأما بدر فقد وجد في المتنبي ما وجدته المتنبي فيه، من ملامح العظمة والطموح فأكرمه وأجزل له وشجعه على أن يقول فيه ما لم يستطع الدهر محوه، ولكن الصفاء لم يطل

لأن الوشاة والمفسدين قد أوقعوا بين الشاعر وأميره وأوغروا صدر بدر على المتنبي الأمر الذي اضطره إلى الرحيل إلى دمشق قاصداً عملاً من أعمالها يقال له حمى جرش، تحت أمرة أبي الحسين علي بن أحمد المري الخراساني، إذ كانت بينهما مودة وهما بطبرية، وذلك سنة ٣٣٣هـ واحتفى به حيث مدحه المتنبي بقصيدتين. لقد حدد في الأولى معالم نفسه بحكمتها وعلوها وقدرتها وانتفاضتها وثورتها وفي القصيدة الثانية حدد سيره في البوادي وواصفاً إياه، وقد عرّض بابن كُروس الذي أوقع بينه وبين صاحبه ابن عمار، واعتذر من صديقه المري مودعاً في آن معاً.

ثم ما لبث أن اتجه شطر انطاكية التي دخلها سنة ٣٣٤هـ وبها أبو عبد الله الخصيبي، فقصده المتنبي ومدحه واصفاً رحلته في البادية وخشيته من أن يُفْتَك به فيها.

وفي هذه الأثناء جاءه كتاب من جدته تعاتبه وهي تبدي نحوه أجمل أشواقها وتطلب منه التوجه إلى العراق ففعل، ولكنه لم يستطع دخول الكوفة فدخل بغداد، وكتب إلى جدته أن تذهب إليه. وعندما استلمت تلك المرأة كتاب حفيدها سقطت ميتة من الفرح فقال فيها، سنة ٣٣٥هـ قصيدته المشهورة التي مطلعها:

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذمّاً
فما بَطَشُهَا جَهْلًا ولا كَفْهُهَا جِلْمًا

ثم لم يلبث بعد ذلك أن رجع من بغداد إلى انطاكية حيث
مدح أبا الفضل أحمد الأنطاكي في القصيدة التي مطلعها:

لك يا منازل في القلوب منازل
أقفرت أنت ومن منك أو اهل

وبعد ذلك لبي المتنبي دعوة أبي محمد الحسن بن طفج،
والي الرملة، سنة ٣٣٦هـ، بعد أن ألح بدعوته إليه، فأكرمه
وأجزل له العطاء. فقال فيه المتنبي شعراً كثيراً ثم ما لبث أن
طلب منه أن يمدح طاهر بن الحسين، وهو شيخ من شيوخ
العلويين بالرملة فمدحه إكراماً لابن طفج.

وفي سنة ٣٣٦ صمم أبو الطيب الاتصال بأبي العشائر
الحمداني ومم وجهه شطر انطاكية، فمر بآطرابلس، وبها
ابن كيغلغ الذي راسل المتنبي أن يمدحه، فاحتج المتنبي
بيمين أقسمه أن لا يمدح أحداً إلى مدة محددة، فعاقه وسد
عليه منافذ الطرق. ولكن المتنبي تمكن من الذهاب إلى
دمشق ولم يستطع ابن كيغلغ من اللحاق به، وهجاه
أبو الطيب بقصيدته التي مطلعها:

لَهْوِ الْقُلُوبِ سَرِيرَةٌ لَا تُغْلَمُ
عَرَضًا نَظَرْتُ وَجِلْتُ أَنِّي اسْلَمُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ:

وَإِذَا أَتَاكَ مُحَدَّثًا فَكَانَ
قِرْدٌ يُفَهِّقُهُ أَوْ عَجُوزٌ تَلْطِمُ
وَمِنْهَا كَذَلِكَ:

ذُو الْعَقْلِ يَشْقَى فِي النِّعَمِ بِعَقْلِهِ
وَأَخُو الْجَهَالَةِ فِي الشَّقَاوَةِ يَنْعَمُ
وَالظَّلَمُ مِنْ شِيمِ النُّفُوسِ فَإِنْ تَجَدَّ
ذَا عِفَّةٌ فَلَعَلَّةٌ لَا يَظْلِمُ

ولكن المتنبي لم يثن عن تصميمه، فقد وصل إلى
انطاكية واتصل بأميرها أبي العشائر الحمداني الذي كان
والياً عليها من قبل سيف الدولة أمير حلب. وكانت علاقة
المتنبي بأبي العشائر علاقة احترام وتقدير وإعجاب حيث
مدحه المتنبي بأكثر من قصيدة، وفي مناسبات مختلفة.
ودخول المتنبي أرض بني حمدان كان بعد أن تهيأت له
شروط النضج إذ بلغ عمره الثالثة والثلاثين، وأصبح قادراً
على التصرف بأمور اللغة لامتلاكه ناصيتها وقد صقلت
إحساسه التجارب.

المرحلة الثانية (٣٣٧هـ - ٣٤٦هـ)

في رحاب سيف الدولة

ولحسن حظ المتنبي، قدم، في تلك الفترة، سيف الدولة إلى انطاكية، فقدّم أبو العشائر المتنبي إليه بعد أن أثنى عليه كل عبارات الثناء، فكان ذلك بدء الاتصال بين سيف الدولة والمتنبي، فمدحه المتنبي في جمادى الأولى سنة ٣٣٧، ونقله معه إلى حلب بعد أن أمضى المتنبي في حضرة أبي العشائر ما يقرب من سنة كاملة.

لقد كان لتعرف المتنبي على سيف الدولة شأن مهم في تاريخ الأدب العربي. لقد عرفنا في بداية الحديث عن المتنبي أنه يتمتع بنفس وثابة طموحة لا ترضى العيش إلا في الأجواء النقية الصافية التي لا تليق إلا بأصحاب النفوس الكبيرة، والهمم العالية الذين لم يرقهم ما كان يسود القرن الرابع الهجري من الأمور السياسية والدينية والاجتماعية المتردية فنادوا: الثورة! الثورة!

والمتنبي، ومنذ نعومة أظفاره، قد حمل لواء هذه الثورة وهو يدعو الناس إلى أن ينفضوا عنهم غبار الذل والخنوع

والاستكانة، فاسمعه يقول وهو يخاطبهم من خلال نفسه :
 عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ
 بَيْنَ طَغْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ
 فَرُؤُوسِ الرَّمَاكِ أَذْهَبُ لِلْفَيْ
 ظِ وَأَشْفَى لِفُلِّ صَدْرِ الْحَقُودِ
 فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظِي وَذِرِ الدُّلَّ
 وَلَوْ كَانَ فِي جَنَّانِ الْخُلُودِ

ولمّا لم يجد فيهم أذنًا صاغية أخذ يتعالى عليهم بعد أن
 أحس بأنه طائر يغرد في غير سربه إلى أن تهيأت له الظروف
 واتصل بسيف الدولة إذ وجد فيه ضالته وبيت القصيد عنده .
 حقاً إن سيف الدولة كان فيما سبق من حياة المتنبي يمثل
 الحلقة المفقودة التي كان يبحث عنها فوجدها متمثلة في
 عليّ بن أبي الهيجاء بن حمدان بن الحارث بن لقمان بن
 راشد من بني تغلب .

لقد كان عليّ بن أبي الهيجاء بن حمدان «شاعراً مجيداً
 وناقداً ذا بصر بالشعر»، إضافة إلى كونه «فارساً مغواراً ذا
 أطماع سياسية بعيدة خاض من أجلها المعارك العديدة مع
 جند الأخشيذ بالشام ومع جند الروم في الشمال ورجع من
 معظمها سالماً منتصراً» .

ولقد وجد المتنبي في صفات سيف الدولة واكتمال معالم
الرجولة فيه صدى لما تعتمل به نفسه فأحب علياً الشاعر
والناقد والفارس والعربي القح الذي يناهض الأعداء من
فرس وروم ويسجل عليهم الانتصار تلو الانتصار، والمتنبي،
في آن معاً شاعر وناقد وفارس يدعو إلى الثورة ويفتش عن
يعضده بها ليرفع الضيم عن الناس في عصره الذي كانت
تسوده الفوضى والإرهاب من التمزق الاجتماعي والفراغ
السياسي والاضطراب الديني، الأمر الذي جعل الخوف
والقلق يتسربان إلى نفوس الناس حيث سيطر عليهم اليأس
وانعدم الرجاء وانقطع الأمل.

لقد انصرف المتنبي إلى سيف الدولة وأصبح شاعر بلاطه
المفوه، كما امتاز عن غيره من شعراء هذا البلاط بأمر كثيرة
منها: أنه لا يُلقي قصائده أمام سيف الدولة إلا وهو جالس ولا
يقبل الأرض بين يديه لأنه يعتبره نده الأمر الذي جعل بعض
الناس، آنذاك يتهمون المتنبي بالجنون.

أما شعر المتنبي في هذه المرحلة من حياته فإنه يحمل
الكثير من ملامح التجاوز التي بدأت بالتفتح في اللاذقية عند
التنوخيين أولاً، ثم ما بدر منه من تجليات في مدح بدر بن
عمّار في طبرية ثانياً ثم ما صدر عنه من شعر في مدح

محمد بن طنج ثالثاً. وهذا التجلي في عمليات التجاوز، تلك، قد حط رحاله في شخص سيف الدولة، حيث بلغ المتنبّي في شعره فيه، ما لم يبلغه أحد من الشعراء ممن أتى قبله ولا بعده، في تاريخ الأدب العربي كله، ولهذا قال ابن رشيّق القيرواني في كتابه العمدة: «وليس في المولّدين أشهر اسماً من الحسن بن هانئ، أبي نواس، ثم حبيب (أبي تمام) والبحتري، ويقال إنهما أخملا في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد، ثم يتبعهما في الاشتهار ابن الرومي وابن المعتز. . . فإن هؤلاء الثلاثة (أبا نواس وأبا تمام والبحتري) لا يكاد يجهلهم أحد من الناس، ثم جاء المتنبّي فملاً الدنيا وشغل الناس».

«لقد جمع سيف الدولة في بلاطه - إضافة إلى كونه أديباً وشاعراً وذواقة للشعر - من الأدباء والشعراء والعلماء ما لم يجتمع مثله إلا في بلاط هارون الرشيد».

ولقد عظم مقام المتنبّي في بلاط سيف الدولة وشعر شاعرنا فيه بشيء من الرضا النفسي والاطمئنان الروحي إذ كان يذهب في الغزوات مع سيف الدولة مقدماً على الجنود والقواد كما بات قرير العين إذ أقطعه الأمير قرية قرب حلب اسمها سبعين، كان ذلك لأن الأمير سيف الدولة قد أدرك ملامح الطموح في نفس المتنبّي إلى السلطان والحكم.

هذه الخطوة التي لقيها المتنبى قد أوجت النار حسداً
وغيظاً في قلوب الكثيرين، في بلاط سيف الدولة، مما
جعلهم يعملون على أن يوقعوا بين الأمير وشاعره إلى أن
تمكنوا من إغيار قلب سيف الدولة على المتنبى إذ كانوا
يتنازعون على الألفاظ والإعراب والأشعار بينما يغزو الروم
ميفارقين سنة ٣٤٥هـ ويهدمونها ويقتلون من أهلها عدداً
كبيراً بعد أن سبوا من سبوا ونهبوا ما نهبوا.

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية أن معز الدولة حاول أن
يضغط على سيف الدولة بسبب تقاعس أخيه ناصر الدولة
وإخلافه مع سالب الخلافة حقها، ابن بويه، الأمر الذي
اضطر سيف الدولة إلى أن يفاوض على مقادير بالغة من المال
سنوياً فرضي ابن بويه وانصرف عن حرب بني حمدان لأن
المال عنده أهم من الحرب وخصوصاً أن الناس قد امتنعوا
عن دفع الخراج لقصر ذات يدهم.

وقد قيل: إن المتنبى شارك سيف الدولة في غزوة إلى بلاد
الروم ولم ينج من العرب في تلك الغزوة غير سيف الدولة
 وستة فرسان من صحبه أحدهم المتنبى .

وإذا نظرنا إلى شعر المتنبى في هذه المرحلة فلم نر أنه
مجرد ألفاظ مرصوفة وإنما هو في الحقيقة صور لأحاسيس

تنبع من قلبه ومن شعوره، ولعل أجود الشعر حقيقة هو أكثره علوقاً بالنفس لأنها مصدر التأثير والانفعال. وكيف إذا كان الأمر يتعلق بشاعر كالمتنبي أحس بالاندفاع نحو المثل التي تتطلب جرأة وشجاعة وفروسية وبطولة؟ فالمدح في البطولة عند المتنبي يتصل بالعمق عند صياغته وأما في غيرها فلا يمكن أن يتجاوز السطح الظاهري من قلبه.

ولعل المتنبي عند مواكبته لسيف الدولة لم يسجل أحداث سيف الدولة وشمائله وحسب إنما «سجل نفسه في مشاعرها المختلفة في فرحها وحزنها، في حبها وكرهها في تعاليها وانقباضها، في طموحها وانقباضها، في اطمئنانها وقلقها.

وإذا كان المتنبي قد أجاد وحلق في مدح سيف الدولة فلعلمه أن كلامه كان على مستوى قدرات ممدوحه الأدبية واللغوية والشعرية والبيانية إضافة إلى المكانة التي كان يتحلى بها رجال بلاطه. فهو بهذا صناع حاذق تجاوز قدرات النخبة الرائدة في زمانه. الأمر الذي خلق له حساداً كثيرين، كما ألمحنا قبل قليل - استطاعوا أن يعرضوا به ويوغروا صدر الأمير عليه لأنه كان، لتعالي نفسه واعتداده بها، يقف من الأمير موقف الند للند، وهو لم يكن كلفاً به إلا لأنه يحمل نفس الصفات التي يراها في العربي المثل الذي كان يرنو إليه منذ أن أبصر النور وتعمقت نفسه بحقيقة الأمور. وأما موقفه من

الناس فقد كان دون ذلك حيث ترك في كل حاشية دخلها حساداً وأعداء «كابن كروّس في حاشية بدر بن عمار ومثله في حاشية أبي العشائر، وما أكثرهم في حاشية سيف الدولة»، حتى قال فيه الواحدي، وهو من شراح ديوانه: «ولكن الرجل (المتنبي) سىء الرأي، وسوء رأيه أخرجه من حضرة سيف الدولة». وسوء رأيه هذا دليل على أنه لا يعرف الإدارة إذ لا شيء أصعب من إدارة الحساد.

لقد استجاب سيف الدولة لأقوال المغرضين وتلّون عليه ولم يثبت معه على حال، فلم يجد المتنبي بعد ذلك إلا الرحيل وخصوصاً بعد أن رماه سيف الدولة بدواة أسالت الدماء على وجهه فقال المتنبي على الفور ارتجالاً:

إن كان سرُّكم ما قال حاسدنا
فما لجرح إذا أرضاكم ألم

وقيل كذلك ان ابن خالويه، وهو أستاذ سيف الدولة، قد ضربه بمفتاح كان يحمله، فغضب أبو الطيب وغادر حلب متوجهاً إلى دمشق في أواسط سنة ٣٤٦هـ - ٩٥٧م.

تجلت في هذه المرحلة عظمة المتنبي في سمو نفسه وبعد همته واندفاعه في إظهار عظمة العرب ورحابة الإسلام، كما تجلت عظمته في دقة تصويره للحروب وهو يجسد بطولات

سيف الدولة فيها خاصة مما نستدل على أنه كان عارفاً بأسرار الجيوش وأساليب القتال. وقد ضمن شعره الكثير من الحكم التي ذهبت أمثالاً على ألسنة الناس، أما الأسلوب فقد ابتعد به المتنبّي عن التكلف «وجرى في شعره على السليقة، فأخذ هذا الشعر يتدفق حماسة وفخراً» واندفاعاً نحو الجهاد في سبيل الخير والحق والجمال.

المرحلة الثالثة من حياة المتنبي في رحاب كافور (٣٤٦ - ٣٥٠هـ)

وصل المتنبي إلى دمشق وعليها، من قبل الإخشيد،
والرَّهويدي يدعى ابن ملك، والتمس من المتنبي أن يمدحه
فلم يعره شاعرنا أذناً صاغية؛ الأمر الذي جعل ابن ملك يخبر
كافوراً الإخشيدي عن وجود المتنبي في قبضته بدمشق، فأمره
أن يرسله إليه. وعندما أحس المتنبي بأن دمشق تضيق به
انطلق إلى الرملة فاستقبله أميرها الحسن بن عبدالله بن طغج
بالهدايا وحمله على فرس جواد وقلده سيفاً محلّى واعتذر
المتنبي عن مدحه. ثم ما لبث كافور أن اتصل بابن طغج
قائلاً: أترونه (المتنبي) يبلغ الرملة ولا يبلغ إلينا؟! ثم لم
يلبث كافور، أن كتب إلى المتنبي نفسه يستدعيه فوجد
الشاعر أن من الواجب عليه الذهاب إلى مصر والمثول أمام
كافور.

لقد كان كافور عبداً حبشياً اشتراه محمد بن طغج
الإخشيد الذي أسس الدولة الإخشيدية في مصر. وكان كافور

على جانب من الذكاء خوله الارتقاء في المناصب حتى أصبح قائداً لجيوش الإخشيد فقاد الجيوش ضد ابن رائق وضد سيف الدولة فهزمه وأخرجه من دمشق بل ومن حلب نفسها، ثم لم يلبث كافور أن ترك له حلب، ومصر لابن الإخشيد أنوجور وذلك سنة ٣٣٥ بعد وفاة الإخشيد.

وانتصار كافور على ابن رائق وعلى سيف الدولة، أطلق يده على مقدرات دولة الإخشيد، وضيق الخناق على أنوجور الذي صمم على الخروج إلى الرملة، فوشت أمه به إلى كافور فمنعه عن رغبته، ثم لم يلبث أن توفي سنة ٣٤٩هـ، مما اضطر كافور الذهاب إلى دار الخلافة حيث ضمن بقاء الولاية في بني الإخشيد وتعيين علي مكان أنوجور على ولاية مصر. ولكن علياً هذا ما لبث أن مات واستقل كافور بحكم مصر سنة ٣٥٥هـ. وبقي على سدةها حتى توفي سنة ٣٥٦.

إلى جانب ذكاء كافور وحنكته السياسية، فقد كان على جانب لا بأس به من الدراية التامة بعلوم اللغة العربية وآدابها. بدليل جوابه على بيت المتنبي الذي يندد فيه بمقتل شبيب الخارجي إذ يقول:

وقد قَتَلَ الأقران حتى قَتَلْتَهُ
بأَضْعَفِ قِرْنٍ في أذلِّ مكان

فأجابه كافور على الفور لإحساسه بالتعريض به قائلاً:
«لا والله بل بأشد قرن في أعز مكان».

ومن صفات كافور، إلى ذلك، حبه للعلم والعلماء
واستماعه إلى الشعراء الذين كان يجيزهم ويجزل لهم العطاء.
إضافة إلى أنه كان ديناً متواضعاً سخياً كثير الهبات والخلع على حد
تعبير المقريري في خططه.

هذا كافور في كتب التاريخ والأدب ولكنه في كافوريات
المتنبي فذم غبي يباع في الأسواق بأبخس الأثمان وهو دامي
الأذن نكد منحرف ولا شيء يقدر على تقويمه إلا العصا التي
ينبغي أن تبقى مشهورة فوق رأسه وبين كتفيه حتى تطوعه
ويسهل قياده.

أما غرض كافور من دعوة المتنبي فهو كغرض أي رجل
يسعى إلى المجد والشهرة وذبوع الصبب، ولا شيء يقود إلى
ذلك إلا شعر شاعر مفوه كالمتنبي. وأما غرض المتنبي عند
كافور رغبته في أن يوليه كافور على صيدا. وقام المتنبي بكل
ما يمكنه في سبيل تحقيق تلك الرغبة التي كان كافور قد
وعده بها. ولكنه لم ينل من كافور سوى المماطلة
والتسويق الأمر الذي جعل المتنبي يفقد الأمل من انجاز ذلك
الوعد الذي بذل في سبيله ماء وجهه بعد أن تخلى عن كثير

من الشروط التي كان قد اشترطها على سيف الدولة سابقاً إذ أنه كان يلقي شعره بين يدي كافور وهو واقف وعلى عكس ما كان يحدث في حضرة سيف الدولة. وعندما مثل كافور عن تلك المماثلة قال: «هو في الفقر وعدم العون سمت نفسه إلى النبوة، فكيف يكون أمره إذا أصاب الولاية».

وكافور بهذا الجواب سياسي داهية محنك ولا يمكن أن تخفى عليه خافية مما جاء في شعر المتنبي من التعريض به نصريحاً وتلميحاً. وإذا تأملنا قوله يمدحه:

أَغَالِبُ فِيكَ الشُّوقَ وَالشُّوقَ أَغْلَبُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْهَجْرِ وَالْوَصْلُ أَعْجَبُ
فماذا نرى؟ فالضمير من «فيك» يرجع إلى سيف الدولة، ويريد بالهجر مفارقتها سيف الدولة، وبالوصل مقدمه على كافور، ثم يزيد بقوله:

أَمَا تَغْلَطُ الْإِيَّامُ فِيَّ بِأَنْ أَرَى
بَغِيضاً تُنَائِي أَوْ حَبِيباً تُقَرِّبُ
عَشِيَّةَ أَخْفَى النَّاسِ بِي مِنْ جَفَوْتُهُ
وَأَهْدَى الطَّرِيقَيْنِ الَّتِي أَتَجَنَّبُ

وإذا كان كافور، كما أشرنا، أديباً من أدباء عصره وذواقة للأدب فهل تخفى عليه هذه الضمائر التي تعود إلى حنين

المتنبي إلى سيف الدولة؟ ولنقرأ هذا البيت:

إنما الجلد ملبسٌ وابيضاضُ الـ

نفسٍ خيرٌ من ابيضاضِ القباء

ألا ترى أن في هذا القول سخرية من خلال تعريضه به

لشدة سواده الذي جعله المتنبي مادة مدحه؟

ألا تلاحظ أن مثل هذه الأقوال، في معرض المدح،

لا يمكن أن تحمل في نفس كافور إلا الحيلة والحذر من

مادحه والبغض له وتحين الفرص للانقضاض عليه في الوقت

المناسب؟

لقد أقام المتنبي في مصر من جمادى الثانية سنة ٣٤٦ هـ إلى

التاسع من ذي الحجة سنة ٣٥٠ هـ، مدح فيها كافوراً بتسع

قصائد وقطعتين. ويعادل ما أنتجه المتنبي في كافور ربع ما

أنتجه في سيف الدولة.

ولم يغرب عن بال المتنبي، في حضرة كافور، ما كانت

عليه مصر، والفسطاط خصوصاً، من المستوى الثقافي البالغ

الأهمية، الأمر الذي جعل المتنبي يدقق شعره ولا ينشده إلا

بعد أن يخضعه لامتحان عسير من النقد والتمحيص، ولأجل

ذلك قال الدكتور طه حسين «ولست أغلو إن قلت: إن شعر

المتنبي في مصر أقلُّ سقطاً من شعره في حلب، لأن المتنبي

فيما يظهر كان يقدر العلماء والمثقفين المصريين، وثم سبب آخر لا بد من الإلمام به والإشارة إليه. فأكثر شعر المتنبي في حلب، حين يقول الشعر في المناسبات المختلفة، مرتجلاً حيناً وطائعاً للأمر حيناً، ومتكلفاً حيناً آخر ومتكلفاً ليثبت أمام منافسيه مرة ثالثة. أما في مصر فشعر المناسبات لا يكاد يوجد في الديوان ولم يَحْتَج الشاعر إلى الارتجال؛ لأن اتصاله بكافور لم يكن من القوة بحيث يثير حاجته إلى ذلك... ومهما يكن من شيء فإن شعر المتنبي الذي قاله في مصر أو الذي ألهمته إياه مصر مختار كله، بريء من السخف واللغو أو كاد.

وإذا قلبت النظر في شعر المتنبي في كافور فإنك ستجد أن أبيات المديح فيها معدودة «وما بقي منها يدور: إما حول نفسه، وإما حول مقامه بحلب وحينه إلى سيف الدولة وأيامه الكريمة، وقد تخللت كل ذلك فلسفة حزينة متشائمة وإن لم يقصد إليها، وإنما أملت ملابسات حياته، فأتت في موضعها من قصائده ملونة بإحساسه»، على حد قول عبد المجيد دياب.

أما من قابلهم المتنبي في مصر منهم جعفر بن الفرات وابن خنزابة وأبو شجاع فأتك الذي أهدى المتنبي هدايا ثمينة فمدحه أبو الطيب بقصيدته التي مطلعها:

لا خَيْلَ عندك تُهديها ولا مَالُ
فَلْيُسْعِدِ النطق إن لم تُسْعِدِ الحالُ

إلى أن يقول:

وقد أطل ثنائي طولاً لا يَبِيه
إن الشناء على التنبال تنبالُ

ولعل هذا القصيدة التي تحمل تعريضاً واضحاً بكافور قد جعلت أبا الطيب يعزم على الرحيل عن مصر، وهو يتحين الفرص لتنفيذ ذلك. وبعد أن انقطع أبو الطيب عن مدح كافور ستة عشر شهراً عاد إلى مدحه ليشعره أنه بات قرير العين في بلاطه وكان ذلك سنة ٣٤٩هـ.

ولم يكن لأبي الطيب من سلوى، في الديار المصرية، سوى أبي شجاع فاتك الذي توفي في شوال من سنة ٣٥٠هـ فأحس المتنبي عند ذلك بالفراغ النفسي الرهيب فأخذ جدياً يتدبر أمر الرحيل حتى تم له ما أراد بعد وفاة فاتك بشهرين، في نفس السنة المذكورة أعلاه حيث هرب ليلة عيد الأضحى بعد أن أرسل إلى أبي بكر الفرغاني رقعة طلب منه أن يسلمها إلى كافور عشية العيد عند العتمة قائلاً: فقد هنيته بها وذكرت عذري. وكانت تلك الرقعة تحمل قصيدته المشهورة في هجاء كافور، ومطلعها:

عيدُ بأيةِ حالٍ عُدْتَ يا عيدُ
بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ
فعاش كافور بهذا الهجاء حياة مرة لم يعرف معها طعم
الحلاوة وندم ندماً عظيماً لأنه لم يهتم بأبي الطيب من ناحية،
ومن ناحية ثانية كيف أصغى للوشاة الذين أوقعوا بينه وبين
الشاعر.

المرحلة الرابعة من حياة المتنبي في العراق وفارس (٣٥٠ - ٣٥٤هـ)

لم يكن مطلب المتنبي من كافور مآلاً لأنه كان غنيّاً عن ذلك بفضل ما أغدقه عليه سيف الدولة أثناء وجوده بحلب، وإنما كان مطلبه المحدد الذي نوه إليه بشعره ضيعة أو ولاية بقوله :

إذا لم تُنِظْ بي ضيعة أو ولاية
فجودك يكسوني وشغلك يسلب

ولكن مما طلة كافور له جعلته يعود إلى العراق وهو يجر أذيال الخيبة وانقطاع الأمل، فدخل مسقط رأسه، الكوفة سنة ٣٥١هـ بعد عراك عنيف بينه وبين عبيده ومرافقيه من ناحية، وبينه وبين نفسه من ناحية ثانية، وبينه وبين أبناء مجتمعه من ناحية ثالثة، ومن ناحية رابعة بينه وبين القضاء الذي غيب عنه الصدر، صاحب القلب الكبير، الذي ينبغي أن يهب لاستقباله، وصار يهوى لمثوى صاحبه التراب وما ضم... .
لقد حل في الكوفة بعد أن بُعدَ عنها ستة عشر عاماً وهو غير

مكثرث بمن كانوا يوجهون إليه نظرات الحقد والشماتة.

ولم يطل بقاء المتنبي في الكوفة إذ غزاها، أثناء وجوده فيها، رجل خارجي من بني كلاب على رأس مجموعة من المقاتلين الخوارج فانبرى لهم دلير بن لشكروز، فهربوا قبل وصوله، فمدحه المتنبي وهو في الميدان مما جعل دلير يكرمه ويحمله على فرس بمركب من ذهب، وكان ذلك سنة ٣٥٣هـ. ولم يلبث المتنبي أن غادر الكوفة إلى بغداد في تلك السنة.

ولما وصل المتنبي بغداد نزل على صديق له حميم هو علي بن حمزة البصري، وأقام عنده في داره ما بقي في بغداد.

وفي بغداد، آنذاك، الخليفة العباسي ووزيره معز الدولة ابن بويه؛ وكان المهلب، وزير معز الدولة، أديباً وشاعراً اجتمع حوله مجموعة من الأدباء والشعراء منهم: القاضي التبوخي وأبو الفرج الأصفهاني والسري الرفاء وابن البقال، وكان المهلب إضافة إلى ذلك «جواداً ذا مروءة، معواناً لأصحاب الحاجات».

ولكن المتنبي لم يمدح أحداً من هؤلاء الثلاثة وخصوصاً المهلب الذي طلب أصحابه من المتنبي أن يمدحه، وقيل إن

هذا الوزير قد أعد لأبي الطيب هدية عظيمة إن هو مدحه .
ولكن إعراض المتنبي عن ذلك جعل المهلي يفرق تلك
الهدية على الشعراء في حضرته وقد ألهم عليه فأعادوا إلى
الأذهان تشبث المتنبي بزرعته العلوية، فراحوا يغمزون من
نسبه ويتهمون به بالشح والتقتير ويتماجنون عليه ويسمعونه كل
ما من شأنه أن يغيظه وينغص عليه حياته، ولكن المتنبي لم
يجبهم على أهاجيهم وإنما قال: إني قد فرغت من إجابتهم
بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء:

أرى المتشاعرين غرُّوا بذمي
ومن ذا يحمِدُ الداءَ العضالا
ومن يك ذا فمٍ مُرٍّ مريض
يجد مرأً به الماءُ الزُّلالا
وقولي .

أفي كلِّ يومٍ تحت ضِئبي شَوْنِعِرُ
ضعيفٌ يقاويني قصيرُ يطاولُ

كل ذلك ولم يتخرج المتنبي في الرد عليهم وعاد إلى
الكوفة، ثم ما لبث أن عاد إلى بغداد بعد أن مات المهلي
الذي أثار حوله بأنانيته ضجة عظيمة ليس فيها ما ينعش النفس
ويجمل الحياة. كما عادت إلى نفس المتنبي «نقمته على

الأوضاع السياسية ومستغلي الحكم من الموالى والأعاجم .

وبينما هو كذلك إذ فوجيء بوفاة خولة أخت سيف الدولة فتحركت في نفسه لواعج الحنين وبوادى الذكرى فأرسل في رثائها قصيدة طويلة غلب عليها تصوير لوعته التي نمت عن حب دفين في نفسه . ويستخلق محمد شاعر من هذا الحب سبباً من أسباب وقوع الجفوة بين الشاعر وسيف الدولة .

وبينما كان المتنبي في طريقه إلى فارس ، وهو يصطحب معه راويته وصديقه علي بن حمزة البصري ، استدعاه ابن العميد لزيارته بأرجان . فلم يخيب المتنبي طلبه وأخبره يقدم مما جعل أبا الفضل بن العميد يخرج لاستقباله بموكب حاشد سنة ٣٥٤هـ فمدحه المتنبي عرفاناً وتقديراً بقصيدته التي مطلعها :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا
ويكاك ألم يجبر دمعك أو جرى

إلى أن يقول :

من مبلغ الأعراب أني بعدها
جالست رسطاليس والاسكندرا
وسمعت بطليموس دأرس كُتبه
مُتملكاً مُتبدئاً مُتحضراً

ولقيت كل الفاضلين كأنما
رد الإله نفوسهم والأعصرا

هذا، ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أن ابن العميد كان
رجلاً عالماً في السياسة والفلسفة والأدب.

وممن حاول الاتصال بالمتنبي وهو بحضرة ابن العميد،
الصاحب بن عباد، ولم يكن قد استوزر بعد، وتمنى لو
يمدحه ولكن أبا الطيب رفض أن ينزل إلى مستوى الكتبة في
بلاط ابن العميد، الأمر الذي جعل الصاحب ينصرف بكتاباتهِ إلى
تبيين مثالب المتنبي من خلال شعره.

ولقد وصل خبر المتنبي إلى شيراز، فأرسل إليه عضد
الدولة طالباً زيارته، فتردد المتنبي أول الأمر، ولكن ابن
العميد نصحه بأن يلبي تلك الدعوة لأن عضد الدولة رجل
شهم وقد يصلك بأضعاف ما وصلتكَ به. فقال المتنبي:
«إني ملقًى من هؤلاء الملوك، أقصد الواحد بعد الواحد
وأملكهم شيئاً سيقى بقاء التَّيرين ويعطونني عرضاً فانياً، ولي
صخرات واختيارات فيعوقوني عن مرادي، فأحتاج إلى
مفارتهم على أقبح الوجوده؛ فكاتب ابن العميد عضد الدولة
بهذا الحديث فورد الجواب بأنه مُملِكٌ مراده في المقام
والظن».

فذهب المتنبي إلى عضد الدولة مطمئن النفس مرتاح البال فأقام عنده فترة قصيرة وصفها بقوله؟: «ما خدمت عيناى قلبي كالיום» ولقد قال المتنبي فيه ست قصائد وأرجوزة طردية وقطعة، ولقد كانت إحدى القصائد تعزية بعمه عضد الدولة، وليس فيها من التاريخ غير وصفه لهزيمة هشودان الكردي الثائر على بني بويه في قصيدتين.

ولعل طبع المتنبي قد خانه في مدح عضد الدولة كما خانه في مدح ابن العميد قبله، فهو ليس من قلبه وإحساسه، وشعره فيهما بيّن الدلالة على أنه كان متكلفاً الأمر الذي دفع عضد الدولة إلى القول: «المتنبي قال جيد شعره بالغرب». ولقد كان لتأثير الطبيعة الفارسية أثر بيّن على نفسية المتنبي إذ خلقت عنده جواً من الراحة والطمأنينة فتأثر بها ووصفها أجمل وصف مع أن أبا الطيب لم يمكث في شيراز سوى مدة قصيرة خلال العام ٣٥٤هـ، ودقة وصف المتنبي في طبيعة فارس جعل طه حسين يقول: «وما أعرف أن المتنبي أتقن وصف الطبيعة في طور من أطوار حياته كما أتقن في هذا الطور، فوصفه لشعب بوان رائع حقاً... وفي أرجوزته اللامية التي وصف فيها الصيد... ارتقى فيها الشاعر إلى أرفع ما أتيسح له أن يبلغ من الإجادة الفنية الخالصة، وهي التي امتزجت فيها نفس الشاعر بالطبيعة

المادية امتزاجاً مدهشاً كاد ينسيه نفسه كما كاد يصرفه عن عضد الدولة... وما رأيت طبيعة الشاعر أخذت بحظ من الخصب والغزارة، كما رأيتها في هذه الأرجوزة.

وعندما وجد عضد الدولة أن أبا الطيب يريد الذهاب إلى العراق لم يحل بينه وبين حريته بل أغدق على الشاعر الكثير من الهدايا وأكد له وعده بما التزم به فودعه المتنبي وفي نيته أن يعود إليه بعد أن يرى في الكوفة أهله ومحبيه.

ولقد سار المتنبي مسافة خمسين فرسخاً حتى وصل إلى واسط، في شهر رمضان من سنة ٣٥٤، وكتب فيها آخر قصائده وهي القصيدة الكافية التي ودع فيها عضد الدولة.

وعندما أصبح المتنبي على مقربة من دبر العاقول الذي يبعد عن بغداد مسافة خمسة عشر فرسخاً هجم عليه فأتك الأسدي، خال ضبة بن يزيد العيني الذي هجاه أبو الطيب هجاء مقذعاً، في قصيدة طويلة مطلعها:

ما أنصف القوم ضبة وأمه الطرطبة
وانما قلت ما قلت رحمة لا محبة

ولقد تمكن فأتك، مع مجموعة من بني عمه، من قتل المتنبي وغلّامه وولده محسداً انتقاماً لشرف ابن أخته ضبة حيث ظفر بالبغال المحملة بالذهب والطيب والتجملات

النفيسة والكتب الثمينة وكل ما بذل المتنبي من أجله عمره وخصوصاً كتبه ودفاتره التي أحكمها قراءة وتصحيحاً.

وهناك رواية أخرى تقول إن عضد الدولة، عندما ابتعد عنه المتنبي، أرسل من يسأله عن عطاء سيف الدولة وعطاء عضد الدولة فأجاب أبو الطيب: إن سيف الدولة يعطي طبعاً وعضد الدولة يعطي تطبعاً. فغضب عضد الدولة فأرسل من جهز عليه من قوم ضبة.

وقيل كذلك إن الخفراء قد طلبوا منه خمسين درهماً مقابل حمايته فرفض ذلك لشحه واعتداده، وحدث له ما حدث فرثاه المظفر بن علي الطوسي قائلاً:

لا رعى الله سِرْبَ هذا الزمانِ
إذ دهانا بمثل ذاك اللسانِ
ما رأى الناسُ ثانيَ المتنبي
أيُّ ثانٍ يُرى لِـبُكرِ الزمانِ

ولكن من الثابت تاريخياً أن فاتك الأسدي ما سُمِّي فاتكاً إلا لكثرة ما سفكه من دماء الأبرياء لأنه كان قاطع طرق ورجل عصابات يعيش على السلب والنهب. ولقد كان معروفاً أن المتنبي إذا أراد الخروج من بلد إلى بلد يحمل معه كل ما يملك فانتهاز قوم ضبة، وعلى رأسهم فاتك،

فرصة خروج المتنبي، ومعه جنى عمره، وانقضوا عليه طمعاً بما يحمل وهم يدعون ظاهرياً أنهم ينتقمون لشرفهم، وفي الحقيقة لا يبتغون إلا ما معه؛ وقد يكون الأمر أبعد من ذلك إذ أن المتنبي، عندما كان في منزل علي بن حمزة، قد اجتمع حوله شباب بغداد وفتيانها وهم جميعاً، من أبناء الطبقة الوسطى، الأمر الذي دفع شعراء بغداد، ويزيد عددهم على السبعين قد هجوه وعابوا عليه تجمع أبناء الطبقة الوسطى حوله. وكان ذلك بتحريض من الوزير المهلبى ومعز الدولة البويهى والصاحب بن عباد. ألا يكون أنه قد نمت علاقة تنظيمية معينة بين المتنبي وأبناء الطبقة الوسطى من الشباب؟؟ فدبر له ذلك الكمين الذي قتل فيه لمنع الاتصال بينه وبين أبناء تلك الطبقة من المثقفين الشباب؟! وعلاقة فاتك ما هي إلا أن يكون قد استؤجر هذا الأخير ونفذت بحقه عملية القتل المدبرة!!

ديوان أبي الطيب وشعره

يعتمد الدارس عموماً، وخصوصاً دارس الأدب، على النصوص المسندة، إلى أصحابها، إسناداً صحيحاً، حتى تكون النتائج، في الأبحاث المدروسة، والآثار المحققة والدراسات المقارنة، نتائج تطمئن إليها العقول، وتأنس فيها الأذواق الحساسة، وتنفعل بها النفوس المرهفة الطبية.

وديوان المتنبي هو المرجع الوحيد، بل هو المصدر الوحيد الذي نركن إليه إذ أن أبا الطيب نفسه قد أولاه اهتماماً خاصاً لم نره عند غيره من الشعراء الذين سبقوه أو عاصروه أو أتوا بعده. ولعل هذا الاهتمام من أبي الطيب بديوانه من ناحية واهتمام الناس، بهذا الديوان، من ناحية ثانية يجعلنا نقف منه موقفاً مطمئناً يجعلنا نستشف من خلاله تاريخ حياة المتنبي الذي اعتمد في ترتيبه التسلسل الزمني بحيث أتت معظم قصائده في مواضعها حسب تنامي حياة المتنبي منذ أن تفتحت شاعريته إلى أن فارق الحياة سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥^(١).

(١) عبد الوهاب عزام. ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام. دار المعارف مصر.

ولقد قرأ أبو الطيب شعره على الناس وأملى على «من قرأه مقدمات قصائده بتواريخها ومن المؤكد أن نسخاً كثيرة من الديوان قد صححت أو قرئت على أصول مقروءة على أبي الطيب نفسه، وأملى شرحاً لبعض أبياته أو لبعض كلمات له، وناقشه فيها من أخذوا عنه خاصة ابن جني»^(٢). والذي يؤكد ذلك ما قاله أحد شراح أبي الطيب وهو أبو الحسن الواحدي، في آخر شرحه «هذا آخر ما اشتمل عليه ديوان أبي الطيب الذي رتبته بنفسه وهو خمسة آلاف وأربعمائة وأربع وتسعون قافية»^(٣). وكما جاء في مقدمة نسخة بدار الكتب المصرية رقم (٥٣٠ أدب) «وجميع ما فيه من تفسير معنى وشرح غريب واختلاف لغة فهو من إملائه عند القراءة عليه»، أي من إملاء المتنبي نفسه.

أما رواية ديوان المتنبي فقد وافانا بها رواة ثقات من أمثال أبي الفتح بن جني الذي كان يناقش المتنبي في الكثير من ألفاظه وتعبيره ومعانيه تاركاً لنا شرحه المشهور «الفسر» وهو شرح ديوان أبي الطيب. وكذلك روى شعر المتنبي صديقه علي بن حمزة البصري الذي نزل عليه المتنبي في بغداد

(٢) عبد المجيد دياب. أبو الطيب. الهيئة المصرية العامة. ص ٣٤.

(٣) عزام. م. ن. ص ٢٢.

ضيفاً ورافقه إلى أن قُتل المتنبي في دير العاقول وحفظ ديوانه بعد ذلك.

وقد روى العكبري عن أبي الفضل العروضي قوله في الرد على ابن جنبي:

«ما أصنع برجل ادّعى أنه قرأ على المتنبي ثم يروي هذه الرواية ويفسر هذا التفسير. وقد صَحَّت روايتنا عن جماعة منهم محمد بن العباس الخوارزمي، وأبو محمد بن القاسم الجرمي، وأبو الحسن الرُّحْجِي وأبو بكر الشعراني وعدة من الرواة يطول ذكرهم»^(٤). وهؤلاء الرجال الذين ذكرهم العُكْبَرِي هم من الثقات الذين اهتموا بشعر المتنبي وعملوا على نشره وتوضيحه وتدريسه في شتى الأقطار العربية والذي يؤكد ذلك قول العكبري نفسه: «وقرأته قراءة فهم وضبط على الشيخ الإمام أبي الحزم مكيّ بن رِيَّان الماكسيني بالموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة. وقرأته (ديوان المتنبي) بالديار المصرية على الشيخ أبي محمد عبد المنعم بن صباح التيمي النحوي»^(٥).

ولا يزال ديوان أبي الطيب يحظى بكل عناية من الرواية والشرح والتحقيق. ولقد شرّحه واهتم به في العصر الحديث

(٤) العكبري. شرح ديوان المتنبي. ج ١ ص ٢٧٦.

(٥) عزام. م. س. ص ٢٣.

كل من الشيخ ناصيف اليازجي (١٨٧١) وعبد الوهاب عزام والبرقوقي. ولقد بلغ عدد شراح هذا الديوان منذ أن تركه صاحبه إلى أيامنا هذه ما يزيد على الخمسين شرحاً إضافة إلى النقاد والدارسين الذين لن تتوقف مسيرتهم عن الدرس والتنقيب والتمحيص الأمر الذي يدفعنا إلى القول إن ديوان المتنبي خاصة كبحر بعيد الأغوار يجد فيه الغواصون الحاذقون درراً ثمينة لا تنقطع كلما أمعنوا في الغوص إيغالاً.

وأما من حيث نسبة الديوان إلى أبي الطيب فأمر لا غبار عليه خصوصاً وأن المتنبي، وكما تشير الروايات، قد اهتم بترتيب ديوانه بنفسه، وأن الناس كذلك، من محترفي مهنة الأدب في تتبع آثاره، قد رصدوا شعر الرجل لما كان يحمل هذا الشعر من معان جديدة. وما يكاد هذا الشعر يخرج من فم صاحبه حتى يشيع ويصبح على كل شفة ولسان، ولا ريب بعد ذلك أن تجد الناس يتحلقون حول المتنبي، وهو في بيت علي بن حمزة الذي حفظ لنا ديوانه من الضياع، وقد جذبت شخصيته الشباب قبل كل شيء، فرأى خصومه في ذلك فرصة ليزيعوا أن المستمعين إليه كانوا من غير المميزين، ولكنك ترى في الندوة علي بن حمزة (نفسه) الذي لم يكن حدّاً لإعجابه بالشاعر وحماسه له^(٦). وكان بيت علي بن حمزة

(٦) دياب. م. س. ص ٣٦.

في ربض حميد، في بغداد، ولا شك أن القارئ يعرف موقع بغداد في ذلك الوقت إذ أنها كانت حاضرة العلم والثقافة والأدب، فانقسم الناس فيها، وفي عموم الديار الإسلامية، فريقين: فريق يناصر الشاعر ويتحمس للدفاع عن شعره كل الحماس. وفريق يعمل، بكل ما أوتي، على الكيد له وتبيين مثالبه ورصد كل ما في شعره من الهنات. وابن جني على رأس الفريق الأول إذ أنه بذل كل ما في وسعه، كي يظهر أن أبا الطيب فوق الشبهات في شعره وهو في هذا الميدان لا يبارى لأنه كان على دراية تامة بكل ما قاله أبو الطيب وذلك لأنه كان قد استوضح من المتنبي نفسه عن كل ما غمض من ألفاظه ومعانيه لأن ابن جني كان من مجالسيه بشكل دائم. وكان على رأس الفريق الثاني، في الفترة الأخيرة من حياة المتنبي معز الدولة والصاحب بن عباد، والوزير المهلب، الذين حرضوا ضده شعراء بغداد، لأن المتنبي ترفع عن مدحهم ولم يكثرث بهم. ولكنه لم يردّ على أولئك الشعراء بل اكتفى مذكراً، في الرد عليهم، بما قاله في الذين حاولوا الكيد له وهو في بلاط سيف الدولة، قبل ذلك، وفي مقدمة أولئك أبو فراس الحمداني وابن خالويه والخالديان وفيهم يقول:

(٧) زكريا المحاسني. أبو الطيب المتنبي. بيروت. ص ٥٤.

أفي كل يوم تحت ضبني شُوئِعِرُ
ضَعِيفُ يُقَاوِنِي قَصِيرُ يُطَاوِلُ

وقيل له لماذا لا تهجو هؤلاء الشعراء في بغداد فقال: لقد
فرغت من الرد عليهم حين قلت فيمن هم أعلى منهم مرتبة:

أرى المتشاعرين غُبرُوا بذي
وَمَنْ ذَا يَحْمُدُ الداءَ العُضَالَا
ومن يك ذا فم مرّ مريضٍ
يجد مُرّاً به الماءُ الزُّلالَا

ومن شعراء بغداد، الذين يزيد عددهم على السبعين، ابن
سكرة وابن لنكك وابن الحجاج.

والمعركة بين مؤيدي أبي الطيب ومنافسيه قد هيأت لنا
القاضي الجرجاني المتوفى سنة ٤٩٢ فوضع كتابه المشهور
«الوساطة بين المتنبّي وخصومه» حيث وقف في هذه الوساطة
موقفاً موضوعياً بيّن لنا فيه ما للمتنبّي وما عليه. وكذلك وضع
لنا أبو الحسن الإفريقي المعروف «بالمتميم» في أواسط القرن
الرابع، كتاباً سماه «الانتصار المنبي عن فضل المتنبّي»؛
كما وضع يوسف البديعي المتوفى سنة ١٠٧٣ هـ كتابه
المعروف «الصبح المنبي عن حيشة المتنبّي».

ولم تقتصر شهرة المتنبي على المشرق العربي بل تجاوزته إلى أبعد من ذلك، ومروراً بالاندلس، وخصوصاً أن الكلام الجيد، الذي يتناول أحاسيس الإنسان وتطلعاته، يذهب إلى جميع أقطار العالم دون جواز سفر، إلى أن برزت حركة الاستشراق حيث نهياً لشعر المتنبي المستشرق غوليوس فعرف به ونشر له مقطعاً من شعره سنة ١٦٥٦ ميلادية. وفي القرن التاسع عشر تُرجمت أشعار المتنبي إلى اللغات الأجنبية على يد عدد من المستشرقين من أمثال رايسك وسلفستر دوساسي وهامر برغستال ونيكلسون وغوستاف شلومبرجين الذي ترجم للمتنبي وعرف به وبشعره^(٨)، واسكندر قازايليف الذي عرّف الروس على شاعرنا العظيم، وكذلك نرى المستشرق ماريوس كانار الذي اهتم بدراسة المتنبي والحمدانيين، وريجيس بلاشير الذي وضع كتابه: «شاعر عربي من القرن الرابع الهجري: أبو الطيب المتنبي»^(٩).

وقد عُنيَ عدد من المستشرقين بنواح معينة من شعر المتنبي كأن عالِج لويس ماسينيون نزعة الحماسة عند المتنبي وردها إلى الحركة القرمطية التي بدأت في أواخر القرن

(٨) جوزيف الهاشم، أبو الطيب المتنبي. بيروت، ص ٢٧.

(٩) زكي المحاسني. م.س. ص ٦١.

الثالث الهجري وامتدت إلى ما بعد حياة المتنبي ، ولقد ذهب ماسينيون إلى أن هذه النزعة هي نزعة دموية تعتمد على سفك الدماء . ويؤيد رأي ماسينيون كل من الدكتورين طه حسين في كتابه «مع المتنبي» وشوقي ضيف في كتابه «الفن ومذاهبه في الشعر العربي» . أما الدكتور زكي المحاسني فيرى على العكس من ذلك بأن نزعة القوة والحماسة في شعر المتنبي ما هي إلا نزعة عربية أصيلة تعود جذورها إلى عمق الحياة العربية القائمة على المثل العليا في مقارعة الأعداء وخصوصاً أن القائمين على سدة الخلافة، في أيام المتنبي كانوا عاجزين، وأصحاب السلطة الفعليين هم من غير العرب^(١٠).

ولا يسعنا بعد الحديث عن ديوان المتنبي إلا أن نشير إلى كتابين جديرين بالذكر ألا وهما: الأول: «أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين» للدكتور عبد الله الجبوري . والثاني «رائد الدراسة عن المتنبي» للسيد كوركيس وميخائيل عواد . ومن خلال هذين الكتابين نتأكد أن ديوان المتنبي قد لقي من العناية ما لم يلقه أي ديوان غيره من دواوين الشعراء العرب، من الجاهلية إلى أيامنا هذه، بحيث يزيد عدد الدراسات، التي أنشئت عن شعره ولا تزال، على الألفي مصدر ومرجع،

(١٠) زكي المحاسني . م . س . ص ٦٢ .

باللغة العربية والأجنبية، «موزعة بين كتاب ورسالة ومقالة
ونُبذُ أفردت له»^(١١).

وأما شعر المتنبي، بين دفتي ديوانه، وعلى تعدد شراحه
وطبعاته، فإنه يمثل شخصية أبي الطيب تمثيلاً دقيقاً منذ أن
بدأت رحلته من الكوفة إلى البادية وبر الشام وحلب ومصر
والعراق وفارس والعراق مجدداً، إلى أن قتل على مقربة من
بغداد سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م، كما رأينا عند استعراض سيرته.

ويمثل شعر المتنبي شخصيته من خلال مظهرين اثنين:
مظهر خارجي جسماني، ومظهر داخلي نفسي.

أما من جهة مظهره الخارجي فنستطيع أن نتصور أنه رجل
نحيل يغلب عليه الضعف والهزال الأمر الذي يجعلك لا تراه
لولا مخاطبته إياك كقوله:

كفى بجسمي نُحولاً أنني رجلٌ

لولا مخاطبتي إياك لم ترني

وهو مع هذا الضعف والنحول، قد أضنى جسمه السقم
والتسهد للذان كانا يلازمانه وفي ذلك يقول:

جمعت بين جسم أحمد والسُّقْ

م وبين الجفون والتسهد

(١١) عصام السيوفي. العوامل السياسية في شعر المتنبي. بيروت. ص ١٠.

وهو كذلك قد أحب كل النحلاء إكراماً لنحوه الجسمي
الذي كان شغوفاً به وعاشقاً له كقوله :

واني لأعشق من أجلكم
نحولي وكلُّ امرئٍ ناحِلٍ
ولقد اتصف المتنبي بفتوة وشباب ورونق ووسامة وشعرٍ
كثٍّ أسود توفّر فوق جبينه وناسٍ على أذنيه وقد تصور أن هذه
الوفرة لا تحسن إلّا إلى الأبطال وهم في ساحات الوغى :
لا تحسن الوفرة حتى تُرى

منشورة الضفرين يوم القتال
كما أنه قد بكى تلك الوفرة وذاك الشباب بعد أن امتد به
العمر وغزاه الشيب ، ولم يعد لذاك الوجه رونقه وسماحته
ووسامته كقوله :

ولقد بكيتُ على الشباب ولمُتي
مُسَوَّدَةٌ ولماءٍ وجهي رونق
وأبو الطيب يكره كثيراً التصنع والمتصنعين فهو لذلك ترك
شعره على حاله عندما خالط الشيب لِمَتِه :

ومن هوى كلِّ مَنْ لَيْسَتْ مُؤَهَّةٌ
تركتُ لونَ مشيبي غيرَ مخضوب
ومن هوى الصديق في قولي وفي عملي

رَغِبْتُ عن شَعْرِ في الرأسِ مكذوبٍ

وقد يكون الشيب قد غزا شعر المتنبي مبكراً كما يظهر من
خلال قوله :

راعتكِ رائحةُ البياضِ بمفرقي
ولَوْ أَنَّهَا الْأُولَى لِرَاعِ الْأَسْحَمِ
لو كان يُمكنني سَفَرْتُ عن الصبي

فالشيب من قبل الأوانِ تَلُثُّمُ
ولكن هذا الشيب كان عزيزاً على قلب صاحبه لأنه إلفه
وحبيبه وقد رافقه مسيرة الحياة الكبرى في جهاده الطويل فهو
لا يحب مفارقتَه والعود عنه إلى الصبا على حبه له .

خُلِقْتُ أَلُوفاً لو رجعتُ إلى الصبا
لفارقتُ شيبِي موجَعَ القلبِ باكِيا

وذلك لأن الوفاء من طبع المتنبي ولا بد من متابعة الحياة
برفقة الشيب برآبه (بالشيب) ووفاء له .

وأما المظهر النفساني ، في شعر أبي الطيب ، فإننا نستطيع
تلُّسه ، منذ أن تفتحت شاعريته وهو ما زال في ريعان الصبا ،
وقد رأى بأم عينه ما كان يدور في أيامه ، على حدائته ، من
أحداث يندى لها جبين العقلاء خجلاً ، وخصوصاً ضعف
السلطة المركزية في بغداد ، وانصراف الأمراء والقادة عن
الاهتمام بأمور الناس والانصراف وراء اهتماماتهم بأمورهم

الذاتية، وابتعاد أصحاب الحل والربط عن ممارسة دورهم بشكل صحيح ولم يعد للعربي، يومذاك، أي رأي وأصبح الحكم، عموماً، بيد غير العرب من الناقمين كالإخشيديين والبويهيين والأتراك، اللهم إذا استئينا دولة بني حمدان، في حلب؛ كل ذلك، إضافة إلى الفتن السياسية والخضات الاجتماعية، قد أثر في نفس المتنبي وترك على شعره بصمات لا يمكن إغفالها أو نكرانها.

لقد نقم المتنبي على مثل هذه التركيبة السياسية والاجتماعية، وأحس، من خلال نفسه المتوتبة، أنه غريب عن ناس زمانه، كونهم قد تلاشت عندهم نزعة الطموح وانعدم لديهم الشعور بالكرامة والمسؤولية، فجمحت نفسه إلى العلا وتسامت روحه إلى المجد. فكيف به لا تجمع نفسه وتسامى روحه وهو يحس أن بين جنبيه إباء لا يُحد وعنفواناً لا يُضاهى إذ يقول:

واني لمن قوم كأن نفوسهم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وهو يعلم علم اليقين أن هذا التسامي والجموح وحب التعالي عما حوله لا يمكن أن يكون إلا بالجهاد والمثابرة فلنسمعه وهو يخاطب نفسه التي تشجعه وتحثه للوصول إلى المجد:

تريدين إدراك المعالي رخيصةً
ولا بدّ دون الشهد من إبر النحل
أو قوله:

فلا عَبَرْتُ بي ساعةً لا تُعزني
ولا صحبتني مهجةً تقبل الظلما
وإذا شئت أن تسأل عن همة أبي الطيب فتراها في قوله:
همتي همة الملوك ونفسي
نفس حر ترى المذلة كفرا
أو قوله:

وفؤادي من الملوك وإن كا
ن لساني يرى من الشعراء
ولكن نزعة التعالي والاندفاع وراءها لم تقف عند حدّ
في شعر المتنبي، إذ أنها، وخصوصاً بعد أن كثر حساده في
بلاط سيف الدولة، توصلت إلى أن تدفع بصاحبها إلى القول
وهو في حضرة سيف الدولة نفسه:

سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا
بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم

أَنَامَ مَلَأَ جَفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا
وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ
الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالْبِيدَاءُ تَعْرِفْنِي
وَالسِّيفُ وَالرَّمْحُ وَالْقِرْطَاسُ وَالْقَلَمُ
كَمْ تَطْلُبُونَ لَنَا عَيْبًا فَيَعْجِزُكُمْ
وَيَكْفُرُهُ اللَّهُ مَا تَأْتُونَ وَالْكَرَمُ
مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ عَنْ شَرَفِي
أَنَا الثَّرِيَّا وَذَائِلِ الشَّيْبِ وَالْهَرَمُ

فهذه النفس الطامحة الجامحة المتسامية إلى العظمة دعت
الكثيرين من النقاد، القدامى والمحدثين، إلى اتخاذ مواقف
متعددة، منها ما هو متفق مع نفس الشاعر المندفعة وراء
العظمة التي لا تُنال، ومنها ما يتعارض مع تلك النفس
ويتهمها بالجنون أو ينسب إليها ادعاء النبوة على الأقل.

وأما عن ملامح البداوة في شعره فإنها ظاهرة ماثلة لكل من
حاول قراءة شعر المتنبي واستكناه معانيه. فهو دائماً شجاع:

صَحِبْتُ فِي الْفُلُوتِ الْوَحْشَ مُنْفَرِداً
حَتَّى تَعْجِبَ مِنِّي الْكُورُ وَالْأَكَمُ
وَهُوَ كَذَلِكَ لَا يَحْتَمِي إِلَّا بِسَيْفِهِ وَلَا يَجْنِي الْفَضْلَ مِنْ

سِوَاهُ:

ومرهفٍ سِرْتُ بينَ الجَحْفَلَيْنِ به
حتى ضَرَبْتُ ومَوْجُ الموتِ يلتطم

وإذا نظرنا إلى قول المتنبي فيمن يهتم بجمع المال:

ومن ينفق الساعات في جمع ماله
مخافة فقر فالذي فعل الفقر

ومن هذا القول نستطيع أن نستدرك أن سعي المتنبي وراء المال وعدم إسرافه فيه لم يكونا حباً بهذا المال ولا بخلاً من الرجل، ولسبب بسيط، فإن أبا الطيب، بعد أن اتصل بسيف الدولة ومن ثم بكافور الاخشيدي وعضد الدولة البويهبي بعد ذلك، قد اغتنى ولم يعد بمقدوره أن يعيش الفقر الذي دعا أبو الطيب إلى تجنبه في قوله أعلاه، ولكن، على ما يبدو، من كلامه، أن نفسه قد صممت على القيام بأمر عظيم، ولكن القائمين على إدارة دفة البلاد قد منعه من إبراز ما قد انطوت عليه نفسه من عظيم الأعمال وتفسير ذلك عندنا قوله:

يقولون لي: ما أنت في كل بلدة؟
وما تبتغي؟ ما أبتغي جلاً أن يُسمى

وما هي بغية رجل نما على حب الثورة على الأوضاع
المرتدية التي كانت سائدة في أيامه؟

ألا يكون، وراء تعاليه، في نفسيته الطموحة الوثابة، قد خبأ أمراً لم يجرؤ على البوح به طيلة المدة التي عاشها؟ وقد رأى بأم عينه مصير المتمردين على الأوضاع الشاذة؟

ألا يكون تجميع المال، والتفاف الناس حوله في بغداد، وقبل ذهابه إلى فارس، من الأمور التي دعت إلى قتله ومن معه وسلبه ما قد أفنى من أجله عمره؟

ألا يكون، ما لم تسمح بتسميته الظروف السياسية والاجتماعية، مما يتبعه، من الأمور الجسام التي لم تنضج بعد ولم تكتمل إمكانيات إبرازها للوجود؟

وأبناء الطبقة الوسطى الذين كانوا قد اجتمعوا حوله في بغداد، قد هجاه خصومه بسبب هذا الاجتماع وعُيروه بهم، لأن اجتماع هؤلاء الشباب حول المتنبي في نظر أعدائه قد قلل من قيمته، ولأن المحيطين بأعداء المتنبي من أبناء الطبقة العليا، وهذا في نظرهم من الأمور المهمة التي ترفع الرأس.

هذه النقطة بالذات تسلط الضوء على قضية هامة جداً إذ أن من شأنها أن تترك أثراً سلبياً، في مواقف أبناء الطبقة الاجتماعية الوسطى، وتؤثر فيهم نفسياً بشكل تدفعهم معه إلى التكتل حول رجل ملأ الدنيا وشغل الناس.

ولا شك أن التاريخ قد أغفل هذه النقطة بالذات ولم يشر مؤرخو المتنبي بأكثر من أن اجتماع أبناء الطبقة الوسطى

حول المتنبي قد وضع في أيدي الناقلين عليه، لترفعه عن مدحهم، مهمازاً يسيئون فيه إليه، ويتحاملون عليه، ويعيدون إلى الأذهان صورة الطعن في نسبه وادعائه النبوة؟

أفلا ترى أن موقف شعراء بغداد سلباً حول شخصية الرجل، ما كان إلا لإبعاد الناس عن الالتفاف حول شخصية المتنبي الفذة؟ وخصوصاً أن أبناء الطبقة الوسطى قد شعروا بالإهانة عندما عرّض بهم شعراء بغداد من ناحية، ولشعورهم أن هذا التعريض بهم والتحامل على صاحبهم بسببهم من ناحية ثانية، قد قوى في نفوسهم الشعور بالالتفاف حول الرجل ضد المتحاملين عليهم وعلى صاحبهم أبي الطيب؟

أفلا ترى بعد ذلك، أن تسليط الأضواء على سليات الإنسان، أمر مدروس وموجه يهدف إليه أصحاب الأغراض الخاصة لوضع الستائر أمام أهداف الإنسان العامل الطامح المبدع لطمس أغراضه ومراميه؟!

فاتهام المتنبي بالبخل وبالتالي قتله، لم يكونا عبثاً؛ ولو تأملنا شعر المتنبي نفسه لرأينا أكثر من جواب على تلك الإدعاءات والتهمة التي وُجّهت إليه. فاسمعه يقول:

وكم مِنْ جبالٍ جُبْتُ تشهُدُ أنني الـ
جبالٌ وبحرٌ شاهِدُ أنني البحرُ

ألا ترى أن في هذا القول تأكيداً من الشاعر على شجاعته
 في استنطاق الجبال وعلى كرمه وسخائه في استشهاده البحر؟
 وهل يصح بعد ذلك أن يُتَّهَمَ المتنبي بالبخل وادعاء النبوة؟
 إذا كان أبو الطيب قد تأثر بظروف عصره، وعبر عنها في
 أماكن مختلفة في شعره، فإنه قد تأثر كذلك بكل أنواع
 الثقافات التي اقتبسها من «كتاب الكوفة» كان يدخله أولاد
 الأعيان من الكوفيين، فتعلم العربية لغة وإعراباً وشعراً ثم
 ارتحل إلى البادية حيث صاحب الأعراب... وأخذ عن
 شيوخهم كثيراً من أوابد اللغة وشواردها، ورجع إلى الكوفة
 بعد سنين شاعراً حاذقاً عالماً باللغة وأسرارها، وتنقل من
 بادية العراق إلى بادية الشام، ومن البدو إلى الحضرة، ومن
 المدر إلى الوبر، متردداً بين القبائل^(١٢). كما لازم الوراقين
 واستفاد الكثير مما يمتلكون من الكراريس^(١٣) التي ينقل عنها
 في دفاتره ما يجده مناسباً لتأصيل ثقافته وتعميقها. وكأنني
 بالمتنبي في هذا المجال يدرك إدراكاً واعياً أن من واجبه أن
 يحيط بثقافة عصره كاملة، كما عليه كذلك أن يلم بترائه
 الثري حتى يصبح متمكناً من الاستمرار في عملية الإبداع
 الفنية التي كانت قد نشأت على يد أوس بن حَجَر وامتدت

(١٢) الثعالبي. بتيمة الدهر. ج ١ ص ٧٩.

(١٣) المحاسني. م. س. ص ٥٧.

صُعْدًا إلى زهير بن أبي سلمى وكعب بن زهير والحطيئة
وجميل بن معمر ومسلم بن الوليد وأبي تمام الطائي؛ فهذه
الإحاطة، بالتراث، مع قدرة المتنبي، بعبقريته الفذة، على
العطاء، هي التي مكنته من عملية التجاوز ليصير فيما بعد
شاعر العرب الأول بعد أن كان، قبله، أبو تمام والبحري قد
احتلّا تلك المكانة في القرن الثالث الهجري.

وأبو الطيب، في شعره، «إذا تعرض لنظم معنى من
المعاني - التي لا صلة لها مباشرة بظرف القول، مما يمكن
اعتباره التزام الشاعر لطبيعة فنه - تعمل له، وجرده من كل
ملايساته تجريداً، واختزل له البيان كل الاختزال. «ففي قوله
مثلاً

أَمِنْ ازديارك في الدجى الرقباء
إذ حيث كنت من الظلام ضياء
قلق المليحة وهي مِنْكَ هَتَكُهَا
ومسيرها في الليل وهي ذكاء
تراه إنما يصوغ نظماً ما يقرره المنطق... لحمة وسداة،
ولا مساس لما يسوق كحجة - رغم قوتها الإقناعية - بالعاطفة
الحية. فلو أنك أتيت بعبارته على وجهها البنائي لما كانت
إلا:

١ - أَمِنَ الرِّقَبَاءُ ازْدِيَارَكَ فِي الدَّجَى ، إِذْ (لَا يَكُونُ إِلَّا) ضِيَاءٌ حَيْثُ كُنْتَ مِنَ الظَّلَامِ .

٢ - لَأَنَّ . . . قَلَقَ الْمَلِيحَةَ (وَهِيَ مَسْكٌ) وَمَسِيرَهَا فِي اللَّيْلِ (وَهِيَ ذُكَاءٌ) هَتَكَ لَهَا .

فهذا كل ما هنالك إذا تأملتَ رصفه، وليس كل هذا التقديم والتأخير في تركيب العبارة إلا اقتصاداً منه في الألفاظ، اختصاراً للطريق^(١٤) على أساس أن خير الكلام ما قل ودلّ .

وأما إذا اقتضى ظرفه أن يعبر عن شيء يختلج في صدره لحينه، أرسل الكلام مرتجلاً - أو في حكم المرتجل - ملتبساً بشعوره الحي، كما في قوله :

لَا تَحْسِنِ الْوَفْرَةَ حَتَّى تَرَى
مَنْشُورَةَ الضَّفَرَيْنِ يَوْمَ الْقِتَالِ
عَلَى فَتَى مَعْتَقِلٍ صَعْدَةٍ
يَعْلَهَا مِنْ كُلِّ وَافِي السَّبَالِ

فهنا لا تجد أي اقتصاد في الألفاظ . . اختصاراً للطريق، وإنما عاطفة متأججة يعبر عنها الصبي بإطلاق حرارتها في

(١٤) إبراهيم الغُرَيْضُ . فن المنتهي بعد ألف عام . دار العلم للملايين . بيروت . ص ٧٨ .

الكلمات المؤاتية لها»^(١٥)».

وعلى هذا الأساس تستطيع ان تلاحظ أن نسج المتنبي، في قلائد شعره، قد سلك فيه طريقين: «أحدهما دائماً صارخ الألوان ملوناً بشتى عواطفه، والآخر لا لون له غير البياض لأنه ومض العقل المحض»^(١٦).

وانطلاقاً من هذين الطريقين يمكن أن نلاحظ أغراضه الشعرية التي تعبر تعبيراً صادقاً عن مكنونات نفسه القرية والبعيدة من ناحية، ومن ناحية ثانية نستطيع أن نستشف ملامح الحياة العربية والاسلامية في القرن الرابع الهجري، ومن ناحية ثالثة يمكننا رصد عملية التطور الفني للقصيدة العربية والمستوى الإبداعي الذي توصلت إليه، من خلال عملية التجاوز التي جعلت المتنبي يتبوأ المركز الأعلى من بين شعراء العربية، لأنه كان قلب زمانه وعينه وعقله.

والنزعة الغنائية تعتبر أهم أغراضه الشعرية، حيث تراها متمثلة في طموحه وتوثبه، وسعيه الحثيث إلى العلى، وشجاعته وحبه للطعان والمغامرة. كما نرى هذه الغنائية، في غزله وفخره وراثته.

(١٥) العريض. م. س. ص ٧٨.

(١٦) العريض. م. س. ص ٧٩.

وأما الغرض الثاني فهو نزعته الاجتماعية حيث نلاحظ فيها ذمه للعبيد، وتعريضه بالحساد، وعتابه للزمان وبعض ممدوحيه، كما نلاحظ مديحه وهجاءه.

وأما الغرض الثالث فهو نزعته السياسية التي تبرز عنده من خلال تعصبه للعرب الأفذاذ، والتنديد بأعدائهم من العجم.

والغرض الرابع عنده، والذي لا تكاد تخلو منه قصيدة أو قطعة، هو نزعته الوصفية التي تناول فيها وصف الطبيعة، بما عليها من إنسان وحيوان وجماد، إضافة إلى وصفه للأشياء غير المنظورة كالحمى وما تتركه على الجسم، وفي حنايا النفس، من مشاعر وانفعالات.

وأما الغرض الخامس، عند أبي الطيب، فهو نزعته الحكمية، إذ نجدها مبثوثة في معظم قصائده ومقاطععه يقصد إليها كلما دعت نفسه إلى التأمل والاستبصار، فيورد لذلك حكمة أو يضرب مثلاً سياراً خالداً على الزمن يستخدمه الإنسان كلما دعت إليه الضرورة.

فن القصيدة عند المتنبي

إذا عدنا بالنظر إلى ما قبل عصر المتنبي - إلى القرن الثالث الهجري مثلاً - لرأينا أن الشعراء فيه قد نحوا منحيين اثنين، المنحى الأول وسلك فيه أصحابه مسلكاً صعباً شائكاً إذ انصرفوا إلى الإيغال وراء المعاني العميقة التي تتطلب منا إعمال العقل والروية من ناحية، كما انصرفوا إلى الانكباب على الصناعة البلاغية في عملية الأداء الفني حيث أكثروا من الصور البيانية والبديعية من ناحية ثانية الأمر الذي يدعو القراء والمهتمين بالشعر عموماً إلى استخدام الروية وكد الذهن في فهم ما ينظم وما ينثر^(١٧). وعلى رأس هذه المجموعة من الشعراء كان أبو تمام. والمنحى الثاني وقد سلك فيه أصحابه مسلكاً مغايراً للأسلوب الأول إذ انصرفوا إلى اعتماد السهولة والبساطة فيما نظموا من شعر حتى أتى ما تركوه لنا من تراثهم الأدبي مرسلأ سلساً ليس فيه ما يدعو إلى شحذ العقل وإجهاد النفس بل نراه أكثر إطراباً وإيناساً

(١٧) إذا كان أبو تمام قد سلك هذا المسلك فذلك يعود إلى أن طبيعة العصر قد دفعت إلى الاهتمام بالصناعة اللفظية التي من شأنها أن تحيط بالتعبير عن معطيات العصر.

لاهتمام أصحاب هذا المنحى بعملية الإيقاع التي تجعل الشاعر يستحوذ على أحاسيس الناس من خلال السيطرة على أسماعهم، وكان البحري على رأس أصحاب هذا الاتجاه^(١٨).

ففي الأسلوب الأول، عند أبي تمام واضرابه، تكلف وصناعة كما ترى في قوله:

خدم العُلى وخدمته وهي التي
لا تخدمُ الأقوامَ ما لم تُخدم

وفي الأسلوب الثاني، عند البحري وأضرابه، رقة وسلاسة وسلامة طبع وفطرة كما ترى في قوله (البحري):

أتاك الربيع الطلق يخال ضاحكاً
من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وقد نبه النوروز في غلس الدجى
تمائم ورد كن بالأمس نُوما

وأما المتنبي فإنه تحاشى - منذ أول لحظة - ما تجرّه
الطريقتان من عقابيل الصنعة. فقد كان له هدف من وراء ما

(١٨) وعندما سئل البحري عن رأيه في شعره وفي شعر أبي تمام قال:

هو (أبو تمام) أغوص على المعاني، وأنا أقوم بعمود الشعر.

المريض. م. س. ص ١١٠.

التزم به لطبيعة الفن الشعري - ممثلاً فيه - هو أكبر من مجرد تحبيك الكلام... سبائك، كأبي تمام، أو لحوناً كالبحتري... حتى ولا إرضاء للممدوحين. فعاد بالشعر إلى الطريقة المثلى عند بني قومه، ولكنه أسبغ على تلك الطريقة - المعبدة منذ القدم - خير ما في المدرستين من الصفات»^(١٩).

وإذا تأملنا شعر المتنبي، فمقياس الفن الشعري عنده هو وحدة البيت المشدودة العرى بوحدة الموضوع وصفاء المعاني فيه (في البيت) بشكل خاص، ثم ترابط هذه المعاني في القصيدة الواحدة بشكل عام.

وأما الجرس الموسيقي الإيقاعي فلم يكن المتنبي كلفاً به. ولم يكن، هذا الجانب غرضاً يسعى إليه لذاته، كما هي الحال عند البحتري بقدر ما كان همه إبراز المعنى السامي النبيل من خلال وحدة الأبيات وتناميها وانسجامها في القصيدة الواحدة، «دون أن يفقد البيت الفرد ركيزته»^(٢٠) من خلال وحدة الموضوع الذي يتحرك في ذات المتنبي. وبذلك، استطاع المتنبي - على حد قول إبراهيم العريض - أن يجمع بين تحقيق معنى الوحدة تركيزاً في البيت المفرد،

(١٩) العريض. م. س. ص ١١٢.

(٢٠) العريض. م. س. ص ١١٢.

وتحقيق معنى سياقها بنائياً في القصيدة كلها بحيث لا يند فيها بيت عن بيت ومن هنا استحال أن تقدم وتؤخر في أبياته لهذا التلاحم الحديدي في معانيها»^(٢١).

ولقد عاب الكثيرون من النقاد القدامى والمحدثين على المتنبي طريقته في شعره، ومن أوائل هؤلاء سيف الدولة علي ابن حمدان نفسه - وكان أديباً وشاعراً - إذ قال لأبي الطيب لقد انتقدتهما عليك، يعني قوله :

وقفتَ وما في الموت شكُّ لواقف
كأنك في جفن الردى وهو نائمٌ
تمر بك الأبطالُ كنمى هزيمةً
ووجهك وضاحٌ وثغرك باسم
كما انتقد على امرئ القيس قوله (الكلام لسيف الدولة):

كأنني لم أركب جواداً للذة
ولم أتبطنْ كاعباً ذات خلخال
ولم أسبأ الزق الرويَّ ولم أقل
لخيلي: كرِّي كرةً بعد إجفال
فبيتاك لم يلتئم شطراهما كما لم يلتئم شطرا بيتي امرئ
القيس، وكان ينبغي له أن يقول:

(٢١) المريض. م. س. ص ١١٣.

كأنني لم أركب جواداً ولم أقل
لخيلي: كرى كرة بعد إجفال
ولم أسبأ الزق الروي للذة
ولم أتبطن كاعباً بعد إجفال
وكذلك كان ينبغي أن تقول:

وقفت وما في الموت شك لواقف
ووجهك وضّاحٌ وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة
كأنك في جفن الردى وهو نائم

فقال المتنبي: إن صح أن الذي استدرك على امرئ
القيس هذا، هو أعلم بالشعر منه، فقد أخطأ امرؤ القيس
وأخطأت أنا. ومولانا يعلم أن الثوب يعلمه البزاز كما يعرفه
الحائك فإن البزاز يعلم جملة والحائك يعرف تفاصيله.
وإنما قرن امرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد،
والشجاعة في منازل الأعداء بالسباحة في شراء الخمر
للأضياف. وأنا كذلك لما ذكرت الموت في صدر البيت
الأول أتبعته بذكر الردى في آخره، ليكون أحسن تلاؤماً، ولما
كان وجه الجريح المنهزم عبوساً وعينه باكية قلت: «ووجهك
وضاح وثغرك باسم» لأجمع بين الأضداد في المعنى.

فأعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين ديناراً من دنائير الصّلات».

لم نذكر هذه القصة إلا لنؤكد أن المتنبي كان على دراية تامة بفن الشعر وأصول الكلام، كما كان على دراية تامة بما توصل إليه العرب من أنواع العلوم المختلفة - بما فيها الشعر - وكما كان أيضاً على دراية واعية بالأساليب التي كانت معتمدة، إلى أيامه، وخصوصاً، أنه قد عُثِرَ فيما وجدوه معه بعد قتله على دواوين الكثير من الشعراء وخصوصاً ديواني الطائيين (أبي تمام والبحتري وابن الرومي).

ومن أجل ذلك ليس بعيداً على المتنبي أن يبذ الذين سبقوه، بعد أن استلهم طرائقهم، ويعمل على توليد المعاني. وعلى هذا الأساس جاء قول ابن جني: «فأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها واستيفاءه لها، فمما لا يدفعه إلا ضدّ، ولا يَسْتَحْسِنُ معاندته إلا ندّه» (٢٣).

كما أنه قد خرج بالشعر عن أساليب العرب التقليدية، فهو إمام الطريقة الابتداعية في الشعر العربي (٢٣).

(٢٢) ابن جني. شرح ديوان المتنبي، الفسر: ج ١ ص ٢١.

(٢٣) محمد مندور. النقد المنهجي عند العرب. دار نهضة مصر، القاهرة.

وأما ما يمكن اعتماذه في تأكيد رصد الطريقة المتنبية فهو
أولاً القصيدة التي رثى بها جدته التي جاءها كتابه فماتت
وهي تقبله بعد أن قتلها الفرحة فرثاها قائلاً:

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذمّاً
فما بطشها جهلاً، ولا كفها حلماً^(١)
إلى مثل ما كان الفتى مرجعُ الفتى
يعود كما أبدي، ويكرى كما أرمي^(٢)

إن المتنبي بهذين البيتين يحاول أن يعمل عقله وهو
يتمالك نفسه للسيطرة على عواطفه مذكراً أن الإنسان لا بد له
من أن يعود إلى النقطة التي انطلق منها... يكبر وينمو ثم
لا يلبث أن يتضاءل ويتلاشى وذلك على سبيل الاعتبار لأن
الدهر هذه طبيعته وما على الإنسان إلا أن يعتبر أثناء عملية
الخسارة في تراجعهِ إلى نقطة البدء، ولكن الإنسان مهما
تجلد أمام المصيبة فإن الحزن لا بد وأن يهز كيانه ويحرك
أشجانه، ويندفع الشاعر وراء عواطفه وأحاسيسه قائلاً:

لك الله من مفاجئة بحبيبها
قتيلة شوق، غير ملحقةا وصماً^(٣)

(١) الأحداث: مصائب الدهر.

(٢) الإبداء: الخلق.

(٣) الوصم: العيب.

أَجْنُ إِلَى الْكَاسِ الَّتِي شَرِبْتَ بِهَا
وَأَهْوَى لَمْشَوَاهَا التَّرَابَ وَمَا ضَمَّا^(١)
بَكَيْتَ عَلَيْهَا خَيْفَةً فِي حَيَاتِهَا
وَذَاقَ كَلَانَا ثُكُلَ صَاحِبِهِ قَدَمَا^(٢)

أَلَا تَرَى أَنَّ الْحُزْنَ يَغْلِفُ فَوَادِ الْمُنْتَبِي فِيغْمُرُهُ لَوْعَةٌ وَأَسَى
إِذَا أَنْ جَدْتَهُ لَمْ تَمُتْ إِلَّا شَوْقًا إِلَيْهِ وَحُبًّا بَلَقَاتِهِ؟ فَبَكَاهَا مَا يَحْلُو
لَهُ الْبُكَاءُ، وَكَيْفَ لَا يَبْكِي الْمُنْتَبِي جَدْتَهُ وَقَدْ عَاشَا سَوِيًّا وَكُلَّ
مِنْهُمَا قَدْ ثُكُلَ، بِسَبَبِ الْفِرَاقِ، صَاحِبِهِ وَهُوَ حَيٌّ، فَكَيْفَ
لَا يَبْكِي، وَجَدْتَهُ، وَالذَّهْرُ قَدْ فَرَّقَ بَيْنَ الْمُحِبِّينَ حَتَّى أَحْسَ
كُلَّ مِنْهُمَا أَنَّهُ قَدْ فَقَدَ صَاحِبَهُ لَشِدَّةِ وَقَعِ هَذَا الْفِرَاقِ.

وَنَلَاظِظْ هُنَا أَنَّ الْمُنْتَبِي قَدْ اعْتَمَدَ إِعْمَالَ الْعَقْلِ فِي عَمَلِيَةِ
التَّبْرِيرِ وَالتَّعْلِيلِ ثُمَّ لَا يَلْبِثُ أَنْ يَنْسَاقَ وَرَاءَ عَوَاطِفِهِ مُتَأَثِّرًا بِهَوْلِ
الْفَاجِعَةِ. وَاسْمَعِهِ فِي هَذَا الْبَيْتِ، وَهُوَ يَتَذَكَّرُ جَدْتَهُ، وَقَدْ
خَلَفَتْ وَرَاءَهَا بِلَدَهَا الطَّيِّبَ الَّذِي بَكَاهَا أَهْلُهُ وَفَاءَ لَشِمَائِلِهَا
وَبِرًّا بِطَيِّبِ أَرْوَمَتِهِ فَكَانَ مِنْ قَتْلَاهَا.

وَلَوْ قَتَلَ الْهَجْرُ الْمُحِبِّينَ كُلَّهُمْ
مَضَى بِلَدُ بَاقٍ أَجَدَّتْ لَهُ صَرْمًا

(١) المثنوى: القبر.

(٢) الثكل: الفقد.

فالممتني بهذا البيت كما في معظم شعره يلون قصائده
بهذا النسيج العاطفي - العقلاني إذ أنه لا يعتب على الأيام
لأنه أدري بما تنطوي عليه حتى إذا ألمت به النازلة فلن تزيد
على معارفه شيئاً:

عرفتُ الليالي، قبل ما صنعت بنا
فلما دعتنا لم تزدني بها علماً
لأن الغدر من ظلم الأيام وطبيعتها.

ثم لا يلبث أن تأخذ به لوعة التذكر وألم الهجر حيث
يستدرك دور الكتاب الذي أرسله لجذته «بعد فراق دام
أربع عشرة سنة من سنة ٣١٧هـ إلى سنة ٣٣٠م، لم يرها
خلالها أبداً:

أتأها كتبي بعد يأس وترحة
فماتت سروراً بي، فمُتُّ بها غمّاً

حرام على قلبي السرور فإنني
أعد الذي ماتت به - بعدها - سما

على الرغم من سيطرة الممتني على زمام نفسه فإن عاطفته تجاه
جذته لا تلبث أن تعود لتضفي على شعره ستاراً من الحزن الشديد

دلالة على عمق ارتباطه الوجداني بتلك المرأة الطاهرة إذ يحاول أن
يرسم حركاتها وهي تستلم كتابه بلهفة المشتاق :

تعجّب من خطي ولفظي كأنها
ترى بحروف السطر أغربة عصما
وتلثمه حتى أصار مداده
محاجرَ عينيها، وأنيابها سُحما^(١)

ألا ترى أن هذه الصورة المادية لتلك الجدة، وهي تلثم
رسالة حفيدها بلهفة عظيمة، تحمل وراءها اسمي معاني
الشوق نحو من تحب إلى حد أنه أنساها ما يمكن أن يتركه أثر
الحبر على محاجر عينيها التي تذرف الدمع مدراراً لتذيب
ذلك الحبر الذي كتب به تلك الرسالة؟ ألا تلمح تعجبها وهي
تمسك بالرسالة لتمرغ بها وجهها بعد أن اشبعها تقبيلاً
وشمّاً؟

إنها لصورة رائعة فعلاً لو تقصّأها فنان حاذق ماهر لَوَضَعَ
أمام أعيننا لوحة خالدة رائعة وهي تظهر كل معاني
الشوق والحب والحنين. ولكن كيف تكون حال تلك الجدة
إذ انقطع دمها وجفت جفونها إذ كانت تجد بهذا الدمع خير
معين لها في وحدتها :

(١) السُحْم: جمع اسحم وهو الأسود.

رقا دمعها الجاري وجفت جفونها
وفارق حيي قلبها، بعدما أدما^(١)
ولم يُسلِّها إلا المنايا وإنما
أشدُّ من السُّقم الذي أذهب السُّقما^(٢)
فماتت ولشد ما كان وقع الموت على المتني عظيماً وهل
يعقل أن يتداوى شارب الخمر بالخمير؟ ويتداوى من السقم
بالسقم؟ وهل هناك أعظم من السقم؟ الموت؟! الموت
أذهب سقمها (الجدة) وفجع المتني بمن يحب ويُقدَّر.
فالمتني بموتها على عداء مع الموت الذي لا يمكن أن
تنال منه فما العمل يا ترى؟ ولكنه قبل هذا الموت كان يتمنى
لها السعادة الدائمة أما الآن فماذا يطلب، يا ترى، فأصبح
كالشكالي يستسقي الماء لقبرها بعد أن كان يخوض غمرات
الحروب ومعمعات الوغى :

طلبت لها حظاً ففاتت وفاتني
وقد رضيت بي، لو رضيت بها قسما
فأصبحت استسقي الغمام لقبرها
وقد كنت أستسقي الوغى والقنا الصُّمّا

(١) رقا: انقطع.

(٢) يسليها: ينهأ. المنايا: جمع المنية وهي الموت.

وكنـت قبـيل الموت استعظم النوى
فقد صارت الصغرى التي كانت العظمى

ولقد كان وقع النوى (الهجر، الفراق) عظيماً على قلب
المتنبى ولكنه بوجود الموت قَلِبَ الأمر وتغيرت المفاهيم وعاد
الحكم للعقل في تحديد المواقف، فيحس أبو الطيب بعظم
الخطب الجلل ويرى أنه قد عجز أمام جبروت القضاء:

هـبـني أخـذت الثأر فيك من العدى
فكيف بأخذ الثأر فيك من الحمى

وما انسدت الدنيا علي لضيقها
ولكن طَرْفًا لا أراك به أعمى
فواأسفًا ألا أَكْبُ مُقْبِلًا
لرأيتك والصدر اللذي مُلِئًا حَزْمًا
وَالَا أَلَاقي روحك الطيبَ الذي
كَأَنَّ ذكي المسك كان له جسمًا

إلى أن يدفعه الاعتزاز بها إلى القول:
ولو لم تكوني بنت أكرم والد
لكان أباك الضخم كـونك لي أُمًا
وهنا، في هذا القول نرى تحولاً ملحوظاً من المتنبى إذ
التفت إلى الشامتين الذين يتربصون ويتحينون الفرص لإظهار

الشماتة والظعن عليه، وينصرف بكل قواه العقلية إلى الانتباه
لأمورهم والوقوف في وجوههم إذا ما كانت نفوسهم قد
سَوَّلَتْ لهم أن يشمتوا بما أصابه في موت جدته حيث أنهم
يجدون في ذلك لذة ومتعة. فما عليه بعد ذلك إلا أن يتأهب
استعداداً للمجابهة وهو لا يعتمد في ذلك على غير خالقه في
إنزال حكمه على الخلق ولا يقبل غيره:

لئن لَدَّ يومَ الشامتين بيومها
لقد ولدت مني لأنفسهم رَغَمًا
تَغَرَّبَ لا مستعظماً غيرَ نفسه
ولا قابلاً إلا لخالقه حُكْمًا
ولا سالكاً إلا فؤادَ عِجاجةٍ
ولا واجِداً إلا لمُكْرَمَةٍ طعماً^(١)
يقولون لي ما أنت في كل بلدة
وما تبتغي؟ ما أبتغي جَلَّ أن يُسَمَّى
كأن بنيتهم عالمون بأنني
جلوبٌ إليهم من معادنه اليُتَمَّا
وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعبَ من أن أجمعَ الجَدَّ والفهما

(١) المعجاجة: الغبار وهنا يريد غبار الحرب.

وأما تساؤل الناس، والحساد، عما يمكن للمتنبئ أن يصنع، في حُلّه وترحاله، في كل بلدة، غير تضريب أعناق الملوك حتى يترك أصابع اليدين تتناوب في منع ذلك الصخب، من التساؤل، من الوصول إلى المسامع، وبالتالي إلى الأفهام، لما يحمله من الجلبة كأن يقول في غير هذه القصيدة:

تمرستُ بالآفات حتى تركتها
تقول: أَمَاتَ الموتُ أم دُعِرَ الدُّعْرُ
وأقدمتُ إقدامَ الأتْيِ كأن لي
سوى مُهجتي أو كان لي عندها وتُرُ^(١)
ولا تحسبنُ المجدَ زقاً وقينة
فما المجد إلا السيف والفتكة البكر
وتضريبُ أعناقِ الملوك وأن تُرى
لك الهبواتُ السودُ والعسكرُ المجرُ^(٢)
وتركك في الدنيا دويّاً كأنما
تداوَلَ سمعُ المرء أنملة العشرُ
والمتنبئ في ذلك التساؤل، ما أنت في كل بلدة؟ وما
تبتغي؟ ما أبتغي؟! جل أن يُسمى! ألا ترى أن جواب المتنبئ

(١) الأتْي: السيل. الوتر: الثار.

(٢) الهبوات: الغيرات. المجر: الكثير.

عما يبتغي قد بان بوضوح في البيت التالي حيث أن أبناء الملوك يشعرون أن اليثم بانتظارهم بسبب ما سيزله المتنبي بأبائهم وهو يخوض ضدهم أعنف المعارك وأعتهاها لما يعيثنه من الفساد وينشرونه من الظلم، في طول البلاد وعرضها. ولكن هذا الأمر الذي يطمح إليه أبو الطيب صعب جداً، وهو ليس بهذه البساطة، وقد أعد له سيفاً ماضياً وعزيمة أمضى من السيف حيث يقول:

ولكنني مستنصر بذبابه

ومرتكب في كل حال به الغشما^(١)
وجاعله يوم اللقاء تحيتي

وإلا فلست السيد البطل القرما^(٢)
وإذا لم يكن المتنبي مغامراً وطامحاً في سبيل المجد والعلی فلا يمكن أن يكون سيداً وبطلاً وقرماً في آن معاً وخصوصاً أنه من قوم شم الأنوف كما في قوله:

وإني لـمـن قوم كأن نفوسهم
بها أنف أن تسكن اللحم والعظما^(٣)

(١) الغشم: الإندفاع بدون تردد أو تراجع، ورجل بغشم الذي يركب هواه ولا يتراجع عنه.

ذباب السيف: حده.

(٢) القرما: السيد.

(٣) الأنف: الاستكبار والتعالي والاستكاف.

فهذه هي نفس المتنبي طماحة جموحة متعالية مغامرة أنوفة
تأبى الضيم ولا ترضى بالظلم فهي لهذا تدفع بصاحبها الذي
تتمثل فيه كل صفات الرجولة الحقبة التي تسعى إلى إثبات
المثال في كل أمر: في الرجولة والشجاعة والكرم ومساعدة
المظلوم ولا يهمها في كل ذلك لوم اللاتمين وكيد الحاسدين
وفجور الظالمين، وما على الدنيا، بعد ذلك، إلا أن تعرف
بأن هذه المفاهيم الإيجابية مجتمعة، تمثل شخصية المتنبي
خير تمثيل، ولتفعل الدنيا، بما عليها من الشرور والآثام، ما
تفعل ما دام المتنبي يطلب من نفسه الأبية أن تزداد بها كرهاً،
متمنياً من تلك النفس السامية أن لا تقبل الظلم وتبقى صامدة
أمام صروف الدهر:

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبي
ويا نفس زيدي في كرائيها قُدَمَا
فلا عَبَرَتْ بي ساعةٌ لا تُعِزُّني
ولا صَجِبْتُني مهجةٌ تقبل الظلما
بعد أن استعرضنا هذه القصيدة، بكامل جزئياتها، رأينا أن
نفس المتنبي تمور فيها وهي تنبض بشتي ألوان التحرك
الوجداني الحي الذي تعتمل في داخله كل معاني الحياة.
فمن كلفه بالحب تجاه جدته ووفائه لتضحياتها، إلى تحديه
للدهر وصروفه التي لا يمكن أن تثبت على حال في تعاملها

مع أصحاب النفوس الطامحة إلى المجد والعلى، إلى تعريضه بالشامتين، إلى فخره بنفسه واعتداده بمآثرها، وكذلك إلى تحديه للملوك والحكام وهو يهددهم بجلب اليتيم لأبنائهم، إلى تركه في الدنيا دويماً جعل الناس يسائلونه عن ماهيته ومبتغاه، وأخيراً إلى نفسه التي من حقها أن تكون منسجمة مع همة صاحبها القعساء التي تتوق إلى العيش في الأجواء النقية الصافية ولو أغضب ذلك الدنيا التي من طبيعتها أن تكيد للعباقرة الأفذاذ، وأما إذا لم ترض الدنيا بشخصية المتنبي فما عليها إلا أن ترحل لأن تلك الشخصية ثابتة المواقف راسخة كالجبال.

أما بناء هذه القصيدة فهو متنوع بتنوع الأغراض التي عرضت له خلال سياق القصيدة.

فإذا أعدت النظر معنأً في تراكيبها لرأيت أن أسلوب المتنبي فيها، وهو كما في غيرها من القصائد، ينطلق فيه من منحيين اثنين. وتفسير ذلك أن المتنبي إذا كان يهيمه أمر المعنى العقلي فإنما يُعْمَلُ فيه العقل والروية ويدخل شعره فيه الكثير من التقديم والتأخير وتظهر في طياته كل ألوان الصناعة اللفظية والمعنوية دون أن يولي في ذلك أي اهتمام إلى عملية الوزن والإيقاع، وأما إذا كان يهيمه أمر التعبير عن أحاسيسه ومكنونات نفسه فإنك تراه يندفع وراء تلك

الأحاسيس والانفعالات اندفاعاً عفوياً لا تكلف فيه ولا رواء،
وأسلوبه في ذلك سهل ممتنع بحيث أنك لا تستطيع أن تسقط
أو تبدل من البيت ولو لفظة واحدة، ومن القصيدة ولو بيتاً
واحداً.
فمن المنحى الأول قوله:

تعجب من خطي ولفظي كأنها
ترى بحروف السطر أغربة عصما
أو قوله:

وكنْتُ قُبَيْلَ الموتِ اسْتَعْظِمُ النُّوى
فقد صارتِ الصُّغرى التي كانت العُظمى
أو قوله كذلك:

وما الجمع بين الماء والنار في يدي
بأصعب من أن أجمعَ الجَدَّ والفَهْمَا
أو قوله:

ولم يُسْلِهَا إلا المنايا، وإنما
أشدَّ من السُّقم الذي يُذهِبُ السقما
وأما في المنحى الثاني فاسمعه يقول:

أحن إلى الكأس التي شربت بها
وأهوى لمشواها الترابَ وما ضمما

أو قوله :

وتلثمه حتى أصار مدائه
محاجر عينيها وأنيابها سحما
أو قوله :

رقا دمعها الجاري وجفت جفونها
وفارق حيي قلبها بعدما أدمى
وإذا تأملت الطابع العام في هذه القصيدة، في رثاء جدته،
فهو من «هذا النوع الذي ينظمه الفنان خالصاً لنفسه، لا
لعرضه للبيع في الأسواق»^(٤)، لأن صوغ الوجدان المحض
الذي لا يبقى أثره محصوراً في نفس الفنان المبدع فحسب،
بل يتجاوزه إلى نفوس الناس جميعاً لما فيه من رقة وعذوبة
وصدق عاطفة وطلاوة وجرس مؤنس.

أما النموذج الثاني الذي يمكن اعتماده فهو القصيدة
الأولى التي قالها بين يدي سيف الدولة، وقد اشترط المتنبي
فيها، على ابن حمدان، أنه إذا مدحه فلن يقبل الأرض بين
يديه ولا ينشد شعره إلا وهو جالس، فنُسب الجنون إلى
أبي الطيب بسبب هذه الشروط^(٥)، وكان ذلك سنة

(٢٤) العريض. م. س. ص ١١٩.

(٢٥) البديعي. الصبح المنبي عن حيشة المتنبي. دار المعارف. مصر.

٣٣٧هـ/٩٤٨م، حيث كان يجلس سيف الدولة تحت شراع من ديباج عليه صورة ملك الروم، وصور وحش وحيوان، وقد فاز أبو الحسن علي بن عبدالله بن حمدان العدوي بحصن برزويه وعاد إلى انطاكية^(٢٦)، حيث نزل ضيفاً على أبي العشائر الحمداني والتقى عنده بالمتنبي وفرض عليه الأخير شروطه التي قبلها سيف الدولة عن طيب خاطر لما توسم في المتنبي من علائم الذكاء والنبأه.

واستهل أبو الطيب هذه القصيدة، وهي الأولى في مدح سيف الدولة، بما يلي:

وفاءكُما كالرُبْعِ أشجاءُ طاسمُه
بأن تسعدا والدمعُ أشفاهُ ساجمُه^(١)
وما أنا إلا عاشقُ كلِّ عاشقٍ
أعقَّ خليليهِ الصُّفِيُّينِ لائمِه
وقد يتزَيَّا بالهَوَى غيرُ أهلهِ
ويستصحبُ الإنسانُ من لا يلائمه^(٢)
بُلَيْتُ بلى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع في التُّربِ خاتمه^(٣)

(٢٦) الشيخ ناصيف اليازجي. العرف الطيب. ج ٢ ص ٥.

(١) طاسمه: دارسه. الساجم: المنسكب أو الساكب.

(٢) يتزيا: يظهر. يلائمه: يناسبه، يرضيه.

(٣) البلى: الغناء. الشحيح: البخيل.

كثيماً... توقّاني العَوَازِلُ في الهَوَى

كما يتوقّي رِيضَ الْخَيْلِ حَازِمُهُ^(١)

ويحاول المتنبي في هذه الأبيات أن يعود بنا، بالذاكرة إلى الوقوف على الأطلال، على طريقة الشعراء الجاهليين، وقد أثّرت أشجانه وانسكبت دموعه حزناً على هذا الربع الذي عفاه البلى وبُلِيَ المتنبي بسببه حتى توقّاه في هواه اللاثمون والعذال وتجنبوه كما يتجنب مُرَوِّضُ الْخَيْلِ جواده الصعب ويخشى ركوبه.

ألا ترى أن عاطفة الحزن، التي كانت تراود المتنبي في صباه، قد برزت في هذه الأبيات وخصوصاً أن الذين اصطفاهم غير جديرين بصحبته لأنهم غير قادرين على إدراك ما تصبو إليه نفسه؟ ولكن الأمر الذي يزيد حياته تعقيداً، هو أنه مضطر إلى أن يصحب ويرافق مَنْ هو مِنْ غير طيبته؟

فكيف يرضى المتنبي أن يَكْفَهُ البلى ويغمره الفناء ما دام قد أخذ على نفسه كثرة التأمل والاستبصار إذ شبه نفسه بذلك البخيل الذي يقضي الوقت الطويل في البحث عما أضاعه؟ فما الذي قد أضاعه أبو الطيب يا ترى حتى يتوجه - إلى نفسه - بالدعاء عليها؟

(١) توقّي: تجنب. العوازل: اللاثمون. ريض الخيل: الصعب من الجياد.

أفلا نرى أن في عبارته «بليت بلى الأطلال» دعاء على نفسه إذا لم يدأب جاهداً، غير راض بما هو عليه، ومتوثباً إلى ما لم يرقه إنسان على حد قول الشاعر:

فلنسي وإن كنت الأخير زمانه

لأت بما لم تستطعه الأوائل

«وكيف أنه هو- بعد أن خيب صاحباه ظنه باللوم- يستعصي أمره على العذل، وكلها معانٍ مما حام حولها الشعراء قبله ولكن لا بمثل هذا البيان»^(٢٧).

ثم نرى أبا الطيب، بعد هذا المقطع، قد انتقل إلى الغزل قائلاً:

قَبِي تَغْرَمِ الْأَوَّلَى مِنَ اللَّحْظِ مُهَجَّتِي

بشانية، والمتلف الشيء غارمه^(١)

سَقَاكَ وَحَيَّانَا بِكَ اللَّهُ إِنَّمَا

على العيس نَوْرُ وَالْخُدُورُ كَمَائِمُهُ^(٢)

وما حاجة الاطعانِ حَوْلِكَ فِي الدُّجَى

إِلَى قَمَرٍ مَا وَاجِدٌ لَكَ عَادِمُهُ^(٣)

(٢٧) العريض. م. س. ص ١٢١.

(١) غرم ما أتلفه: لزمه أداؤه.

(٢) العيس: الإبل. النور: الزهر. الكمائم: جمع كمامة وهي غلاف الزهر.

(٣) الاطعان: النساء في الهواج. الدجى: الظلام.

إِذَا ظَفَرَتْ مِنْكَ الْعَيُونُ بِنَظَرَةٍ
 أَثَابَ بِهَا مُعْيِي الْمَطْيِ وَرَازِمُهُ^(١)
 حَيْبٌ... كَأَنَّ الْحُسْنَ كَانَ يَحْبُهُ
 فَاتَّارُهُ أَوْ جَارٍ فِي الْحُسْنِ قَاسِمُهُ
 تَحُولُ رِمَاحُ الْخَطِّ دُونَ سِبَائِهِ
 وَتُسَبَّى لَهُ مَنْ كُلُّ حَيٍّ كَرَائِمُهُ
 وَيُضْجِي غِبَارُ الْخَيْلِ أَذْنَى سِتْوَرِهِ
 وَآخِرُهَا نَشْرُ الْكِبَاءِ الْمُتْلَازِمُهُ

بعد أن وقف أبو الطيب على الأطلال وقوف المتأمل
 المستبصر، نراه يعمد إلى الغزل وهو «هنا يُنَوِّه» - لأول مرة في
 الشعر العربي - بتأثير النظرة الأولى، نظرته إلى ذاك النور في
 الأكمام، وكيف كادت تقضي عليه - تلك النظرة - فما من
 سبيل لتلافي أثرها إلا بنظرة ثانية، وكيف أن فاتتته تقوم مقام
 البدر، لهذا الحسن القاهر الذي ما لها فيه ثان، فنظرتها هي
 غاية الثواب للمجهودين، ثم هي بين كرائم قومها، كإنسان
 العين، تُشرع دونها الرماح، وتتشرف بخدمتها السبايا، إلا أن
 الوصول إليها دونه أنفة رجالها وما تثيره خيولهم من الغبار،
 ومن القرب ما يفوح حول خباثتها من دخان الطيب، وكذلك

(١) أثابه: عاد إليه. المعْي: الكليل. المطي: وسيلة الركوب. الرازم:
 المتعب.

فإن هذا النهج في التغزل بـ«ريب ملك» كان بدعاً في
الأدب لم يسبق إليه المتنبي»^(٢٨).

وبعد هذا المقطع الغزلي يعود، المتنبي، إلى تأكيد
معرفته ودرايته بأمور الحياة قائلاً:

وما اسْتَفْرَبْتُ عيني فراقاً رأيتَه
ولا عَلَّمَنِي غَيْرَ ما القلبُ عَالِمُهُ
فلا يَتَهَمَنِي الكاشِحونَ فلانني
رَغَيْتُ الرُدَى حَتَّى حَلَّتْ لي عَلاقِمُه^(١)
مُسِبُّ الذي يبكي الشَّبابَ مَشِيبُهُ
فكَيْفَ تَوَقَّيْهِ، وبانيه هادِمُه^(٢)
وتَكْمِلُهُ العيشَ الصُّبَا وعَقِيبُهُ
وغائبُ لونِ العارضينَ وقَادِمُه^(٣)
وما خَضَبَ الناسُ البياضَ لأنَّه
قَبِيحٌ، ولكنَّ أحسنَ الشُّعْرِ فَاجِمُهُ

(٢٨) العريض. م. س. ص ١٢٢.

(١) الكاشحون: الذين يضمرون العداوة، الردى: الهلاك، العلاقم جمع
العلقم والحنظل وهو نبات شديد المرارة.

(٢) التوقي: التجنب.

(٣) العارضان: جانباً الوجه.

لقد سبر المتنبي أغوار الحياة وفهم معانيها، وكرر هذا
المعنى في أكثر من مجال، ولقد مررنا بمثل تأكيده لهذا
الفهم عندما عرضنا لقصيدته في رثاء جدته حيث قال:
عرفت الليالي قبل ما صنعت بنا

فلما دهننا لم تزدني بها علما
ولنستمع إلى قوله كذلك:

رماني الدهرُ بالارزاء حتى
فؤادي في غشاء من نبالٍ
فصرتُ إذا أصابتنِي سهامُ

تكسرتِ النصالُ على النصالِ
فتعمق المتنبي بصروف الدهر جعله يضرب صفحاً عن
الاهتمام بأمور الدنيا القاسية حتى حلت مرارتها في فمه
وأصبح حنظلها شرباً طيب المذاق، والسعادة لا يمكن أن
ينعم بها الإنسان بهناء ما دامت تسير به الأيام من سيئ إلى
أسوأ حتى يعود إلى النقطة التي انطلق منها أي «عوداً على
بدء» على حد تعبير إبراهيم العريض. ذلك أن الحياة
لا تكتمل بالصبا وحده كمرحلة من مراحل العيش الرغيد
وإنما اكتمالها بما سيعقبها عندما تبدأ علامات انحدار
الإنسان على الجانب الآخر من هرم الحياة، فتزداد الهموم
ويتعمق اليأس إذ لا رجعة عن أيام المشيب... لقد ولى
الصبا.

ولو تتبعنا المتنبي في هذه القصيدة فنجده قد تخلص من وقفته على الأطلال وهو يضع نصب عينيه ما يترأى له في البعيد، ثم ما صدر عنه من غزل رقيق بذكر الحبيبة التي كادت أن تقتله بالنظرة الأولى ولا حياة له إلا بالثانية، ثم تأكيد خبرته بأمور الحياة في تساؤلاته عما تفعله الأيام بالإنسان، إلى أن يلتفت إلى الخيمة التي نُصِبَتْ لسيف الدولة، في انطاكية، وهو في زيارة لابن عمه أبي العشائر الحمداني حيث يقول:

وأحسن من ماء الشبيبة كُلهُ
 حَيَا بَارِقٍ فِي فَازَةٍ أَنَا شَائِمُهُ^(١)
 عَلَيْهَا رِيَاضٌ لَمْ تَحْكُهَا سَحَابَةٌ
 وَأَغْصَانُ دَوْحٍ لَمْ تُغْنِ حَمَائِمُهُ^(٢)
 وَفَوْقَ حَوَاشِي كُلِّ ثَوْبٍ مُوجِبُهُ
 مِنَ الدَّرِّ سِمْطٌ لَمْ يَثْقُبْهُ نَازِمُهُ^(٣)
 تَرَى حَيَوَانَ الْبَرِّ مُضْطَجِعاً بِهِ
 يَحَارِبُ ضِدُّ ضِدِّهِ وَيَسَالِمُهُ

(١) الفازة: المظلة. الحيا: المطر. البارق: السحاب ذو البرق.

الشائم: الناظر إلى البرق يرجو المطر.

(٢) الدوح: الشجر العظيم.

(٣) السمط: الخيط في القلادة وقد يراد به القلادة ذاتها.

إِذَا ضَرَبَتْهُ الرِّيحُ مَاجَ كَانَهُ
 تَجُولُ مَذَاكِبِهِ، وَتَدَايَ ضَرَاغِمَهُ
 وَفِي صُورَةِ الرُّومِيِّ ذِي التَّاجِ ذِلَّةُ
 لِأَبْلَجٍ لَا تِيْجَانُ إِلَّا عَمَائِمُهُ
 تُقَبِّلُ أَفْوَاهُ الْمُلُوكِ بِسَاطَةِ
 وَيَكْبُرُ عَنْهَا كُئْمُهُ وَبِرَاجِمِهِ
 قِيَامًا لِمَنْ يَشْفِي مِنَ الذَّاءِ كَيْهَ
 وَمَنْ بَيْنَ أَذْنِي كُلِّ قَرْمٍ مَوَاسِمُهُ
 قِبَائِعُهَا تَحْتَ الْمِرَافِقِ هَيْبَةِ
 وَأَنْفَذَ مِمَّا فِي الْجَفُونَ عِزَائِمَهُ
 لَقَدْ أَحْسَنَ الْمُتَنَبِّيُ التَّخْلِصَ، مِنْ أَطْلَالِهِ وَغِزْلِهِ وَأُمُورِ
 حَيَاتِهِ، إِلَى الْمَدِيحِ حَيْثُ رُبَطَ بَيْنَ الْمَشِيبِ وَمَاءِ الشَّبِيْبَةِ الَّذِي
 يَطْفَحُ بِهِ بِشْرًا وَإِشْرَاقًا وَجْهُ الْمَمْدُوحِ إِذْ أَنَّهُ كَالْبَارِقِ الَّذِي
 يَحْمِلُ مَعَهُ الْخَيْرَ وَالْكَرَمَ وَالْجُودَ... فَطَمَأَنَ نَفْسَ الشَّاعِرِ
 لِنَوَالِهِ وَعَطَايَاهُ، وَهُوَ فِي تِلْكَ الْخِيْمَةِ الْمَنْصُوبَةِ، لِأَنَّ ذَلِكَ
 مُتَوَقَّعٌ، مِنْ سَيْفِ الدَّوْلَةِ، وَمُتَنْتَظَرٌ. ثُمَّ لَا يَلْبِثُ أَبُو الطَّيِّبِ أَنْ يَتَابَعَ
 فِي وَصْفِ تِلْكَ الْفَازَةِ (الْخِيْمَةِ) وَمَا رَسَمَ عَلَيْهَا مِنَ الْأَشْكَالِ
 الْحُلُوهِ الَّتِي تَعِيدُ إِلَى أَذْهَانِنَا دَقَّةَ الْوَصْفِ الرَّائِعَةِ رَأْيِنَاهَا فِي
 شِعْرِ مَنْ سَبَقَهُ، مِنْ شُعْرَاءِ لُغَةِ الضَّادِ الْفَطَّاحِلِ كَامِرِيِّ الْقَيْسِ
 وَالْأَخْطَلِ وَابْنِ الرُّومِيِّ وَابْنِ الْبَحْتَرِيِّ، حَيْثُ يَقُولُ الْآخِيرُ وَهُوَ

البحثري في سِينَتِهِ المشهورة:

وَإِذَا مَا رَأَيْتُ صُورَةَ إِنْ
طَاكِيبَةٍ ارْتَعَتْ بَيْنَ رُومٍ وَفَرَسٍ
مِنْ مَلِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلٍ رَمَحٍ
وَمُشِجٍ مِنْ السِّنَانِ بِتَرَسٍ
يَفْتَلِي فِيهِمْ أَرْيَابِي حَتَّى
تَقْرَأَهُمْ يَدَايَ بِلَمْسٍ
كَمْ كَانَ الْمُتَنَبِّي دَقِيقًا فِي وَصْفِ تِلْكَ الْخِيَمَةِ وَمَا عَلَيْهَا مِنْ
رُسُومٍ مُوحِيَةٍ لَا يَنْقُصُهَا إِلَّا أَنْ تَنْطِقَ أَوْ تَتَحَرَّكَ لِدَقَّةِ تَجَسُّدِهَا
وَوُضُوحِهَا. وَمَا كَانَتْ صُورَةُ الرُّومِيِّ، وَهُوَ رَاكِعٌ عَلَى تِلْكَ
الْفَازَةِ، إِلَّا تَأْكِيدًا لِقُدْرَةِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ عَلَى إِذْلالِ الْمُلُوكِ، مِنْ
غَيْرِ الْعَرَبِ، وَتَقْرِيرًا لِمَا كَانَتْ عَلَيْهِ مَكَانَةً سَيْفِ الدَّوْلَةِ مِنْ
الْعِظَمَةِ وَالْأَبَهَةِ وَالسُّمُوِّ فِي نَظَرِ الشَّاعِرِ عَلَى الْأَقْلِ وَخُصُوصًا
أَنَّ الْمُلُوكَ لَيْسَ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَقْبَلُوا إِلَّا بِسَاطِهِ لَا أَنْامِلِهِ وَلَا
حَتَّى كُمِهِ. وَمَا هَذَا الْأَمْرُ فِي مَدْحِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ إِلَّا زِيَادَةٌ فِي
تَعْظِيمِهِ وَانْتِقَاصًا وَتَحْقِيرًا مِنْ أَمْرِ خُصُومِهِ.

وبعد هذه الأبيات، مع ما تحمله من صور حسية ودلالات
معنوية، بفضل ما يضيفه على تعابيره من المحسنات اللفظية
والبيانية، يدخل المتنبي في صميم المدح معتمدًا، في
ذلك، الأسلوب الذي يألفه الناس ويرتضونه مضيئًا إليه ما

يأسر أسماعهم وأفئدتهم وعقولهم في آن معاً كقوله:

لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٌ وَطَيْرٌ إِذَا رَمَى
بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ
أَجْلَتْهَا مِنْ كُلِّ طَاغٍ ثِيَابُهُ
وَمَوْطِئُهَا مِنْ كُلِّ بَاعٍ مَلَاغِمُهُ^(١)
فَقَدْ قُلَّ ضَوْءُ الصُّبْحِ مِمَّا تُغَيِّرُهُ
وَمَلَّ سَوَادُ اللَّيْلِ مِمَّا تَزَاحِمُهُ
وَمَلَّ الْقَنَا مِمَّا تَدُقُّ صُدُورُهُ
وَمَلَّ حَدِيدُ الْهِنْدِ مِمَّا تَلَاظِمُهُ
سَحَابٌ مِنَ الْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتِهَا
سَحَابٌ إِذَا اسْتَسَقَتْ سَقَتُهَا صَوَارِمُهُ^(٢)
أَفَلَا تَرَى أَنَّ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ إِغْرَابًا فِي وَصْفِ جَيْشِ
سَيْفِ الدَّوْلَةِ الَّذِي لَا يَسِيرُ إِلَّا وَمَعَهُ سَرَبٌ مِنَ الطَّيُورِ الْكَاسِرَةِ
حَيْثُ لَا يَبْقِيَانِ مِنْ عَسْكَرِ الْأَعْدَاءِ إِلَّا الْجَمَاجِمُ بِحَيْثُ أَنَّ
الْجُنُودَ يَسْقُونَ الْعِقْبَانَ مِنْ دِمَاءِ الْأَعْدَاءِ كُلَّمَا طَلَبُوا السَّقْيَا.
وَهَلْ لَنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ عَلَى ضَوْءِ هَذِهِ الصُّورَةِ صُورَةَ النَّابِغَةِ
الذَّبْيَانِي فِي مَمْدُوحِيهِ إِذْ يَقُولُ:

(١) الأجلة: جمع جلال وهو ما يوضع على ظهر الدابة والضمير للخيل.

الملاغم: حول الفم.

(٢) الصوارم: السيوف.

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم
عصائب طير تهتدي بعصائب
ولكن المتنبى أضرب عن مدح سيف الدولة والتفت إلى نفسه .
فقد كان قبل أن يتعرف إلى سيف الدولة يهيم على وجهه ولا يعرف
إلى أين يسير :

سلكتُ صروفَ الدهرِ حتى لقيتُهُ
على ظهر عزم مُؤيدات قوائمه^(١)
مهالك لم تضحَب بها الذئبُ نفسه
ولا حملت فيها الغراب قواده^(٢)
فأبصرتُ بدرأ لا يرى البدرُ مثله
وخاطبتُ بحرأ لا يرى العيبرَ عائمه^(٣)
غضبتُ له لما رأيتُ صفاته
بلا واصفٍ والشعر تهذي طماطمه^(٤)
وكنْتُ إذا يَمُمْتُ أرضاً بعيدة
سَرَيْتُ فكنتُ السرُّ والليل كاتمه^(٥)

(١) صروف الدهر: حوادثه. والمؤيد: القوي.

(٢) المفاوز: شعاب الطرق. قوادم الغراب: صدور جناحيه.

(٣) العيبر: العبور والاجتياز.

(٤) الطماطم: جمع طمطم، بالكسر: وهو الذي في لسانه عجمة.

(٥) سريت: سرت ليلاً. الهذي: الكلام الغير المعقول.

فإذا كان أبو الطيب قد أغرب جعل أسراب العقبان وعسكر سيف الدولة صاحبتين تستسقي الأولى الثانية فتجيب مصغية ويكون عسكر العدو جماجم لا أكثر؛ وهنا في هذه الأبيات قد جرد لصروف الدهر طرقاً تسلكها العزائم المؤيدة بقوائم ولا غاية لها إلا النصر المحقق وذلك لِتَمَرُّبِهِ وشدة إمعانه في فهم دقائق تلك الحداث ومجاريها وذلك لما في هذه الطرق - صروف الدهر - من مخاطر مهلكة تكاد تهابها نفوس الذئاب وقوادم الغربان التي لا تعرف الخوف ولا يتسرب إلى طويتها الهلع. وفي هذا الجو المخيف من التحدي استطاع أبو الطيب أن يبصر الممدوح - سيف الدولة - بذكراً لا مثيل له وبحراً لا يدانيه البحر في كرمه وعطائه إلى درجة لو حاول عائث اجتياز هذا البحر وعبوره، لما استطاع أن يدرك غوره وأبعاده، وأبو الطيب مع هذا كيف لا يقصد سيف الدولة ويتخذ من الليل أميناً في مسراه على سره الدفين الذي يخشى عليه من الحساد وكيد الكائدين، وقد ثارت نفسه غضباً لأن أحداً من الشعراء قبله لم يوف سيف الدولة حقه من المدح والتمجيد لانطواء نفسه على الكثير من صفات الإشراف والكرم وطيب السمائل..

ثم يمضي المتنبي في المتابعة بمدح الرجل قائلاً:

لقد سلَّ سيفُ الدولة المجدُّ، مُعَ
لِماً فلا المجدُّ مُخْفِيهِ ولا الضربُ ثالمه^(١)
على عاتقِ الملكِ الأغرُّ نجادُه
وفي يدِ جِبارِ السماواتِ قائمه^(٢)
تُحاربُه الأعداءُ، وهي عبيدُه
وتدخِرُ الأموالَ وهي غنائمه^(٣)
ويستكبرون الدهرَ، والدهرُ دونه
ويستعظمون الموتَ، والموتُ خادمه
وأنَّ الذي سَمِيَ عليّاً لمنصفُ
وأنَّ الذي سماه سيفاً لظالمه
وما كلُّ سيفٍ يقطعُ الهامَ حدُّه
وتقطعُ لَزَبَاتِ الزمانِ مكارمه^(٤)
فسيف الدولة، في هذه الأبيات سيفٌ للمجد فلا يستطيع
الدهرُ بحدثانه أن يتجاهله أو يغلَّ من عزمه ليبقى المجد
مجداً محمي الذمار ويبقى السيف مشهوراً في وجوه الأعداء

(١) ثالمه: من بغله ويحدث فيه ثلماً. المُعْلِم: الذي يميز نفسه بعلامة في الحرب.

(٢) العاتق: أعلى الظهر. الأغر: الشريف. النجاد: خمالة السيف.

(٣) تدخر: توفر.

(٤) الهام: الرؤوس. اللزبات: الشدائد.

ومسلولاً في درء الباطل مناصرةً للحق ورفع لوائه. وأما مسؤولية حماية ذلك المجد فمرجعها إلى الله، ممثلاً بالخليفة الذي لقب سيف الدولة بهذا الاسم وسمى أخاه الأكبر بناصر الدولة لما قدّماه للخلافة من أيادٍ بيضاء في مقارعة أعداء الدولة وكان ذلك سنة ٣٣٠هـ. وأعداء الحق عبيده وأموالهم المدخرة غنائمه. فكيف يمكن أن يُستكبر الدهرُ وهو أقلُّ شأنًا منه أو يُستعظم الموتُ وهو خادم له في مقارعة الأعداء. ومع ما للسيف من الأهمية في مقارعة الظلم وحوادث الزمان، صوناً للمجد ودفاعاً عن كرامة الإنسان، فإن من سمى علياً بهذا الاسم لم ينصفه لأن عزيمته أمضى من السيف ذاته لأن سيف الدولة علياً قادراً على أن يقهر شدائد الزمان بقوة شكيمته وصدق إرادته وبعد نظره وانتشار مكارمه وعطاءاته على قاصديه ومعفيه.

في هذه القصيدة، ابتسمت الحياة للمتنبّي فانفرجت أساريه اغتباطاً برضى سيف الدولة عما قاله فيه الأمر الذي نكاد نتصور معه انتفاخ صدر أبي الطيب تكبراً وعنجهيةً واعتداداً، لما تحمله هذه القصيدة من معانٍ قد بدّ بها جميع الشعراء الذين أتوا قبله وقد مدحوا سيف الدولة نفسه فتجاوزهم المتنبّي فناً وإبداعاً بفضل إحاطته الكاملة بتراث الأجداد من جهة ومن جهة ثانية بفضل قدرته الفذة على صقل

المعاني المتعددة الإتجاهات ودقة تجسيدها بشكل موجٍ يشير
في النفس مفاعيل كثيرة من الإعجاب والتقدير والاحتذاء
حتى أصبح العديد من شعراء عصره عيالاً عليه إذ حاكوا
شعره صوراً ومعانياً وفيهم يقول مخاطباً سيف الدولة:

أجزني إذا أنشِدتَ شعراً وإنما
بشعري أناك المادحون مُردّداً

ودع كل صوت غير صوتي فلنني
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

ولقد قال في شعراء عصره في مكان آخر:

إذا شاء أن يلهو بلحية أحرق
أراه غباري ثم قال له: الحق

ولو تتبعنا شعر المتنبي في وجدانياته - رثاء جدته - وفي
مدائحه - القصيدة الأنفة الذكر: وفاؤكما كالربيع أشجاء
طاسمه - عموماً، وفي شتى أنواع شعره وأغراضه، لرأينا أنه
شاعر مجدد قد ضمّن شعره كل أنواع الثقافات التي كانت
شائعة في أيامه الأمر الذي دفع العديد من النقاد إلى القول:
إن شعر المتنبي صورة صادقة لطبيعة عصره لأن نفس المتنبي
التواقة قد اصطبغت بألوان تلك الصورة التي تتمثل باستبداد
الإنسان وغروره وكرامته ونبله. «فتحت عنوان موقفه من

استبداد الإنسان يقع مثلاً ما قاله في الدول والملوك والحظ
والسعادة، ومعاكسة الدهر وجور الزمان. وتحت عنوان موقفه
من غرور الإنسان، يقع ما قاله في متعة الحسن، وطماعة
الحب، وعرض الدنيا، وزيف الحضارة، والحسد والشماتة،
وما يتحتم بعد كل زيادة من نقصان. وتحت عنوان موقفه من
كرامة الإنسان، يقع ما قاله في كبر النفس والاعتداد بها،
والهمم والهموم، والمجد والمال وصلابة الرأي وصدق
الحس وروعة البيان. وتحت عنوان موقفه من نبل الإنسان
يقع ما قاله في حسن البداوة، وعفة أهلها وإبائهم، وما
يتحلون به من صفات الكرم والشجاعة، والصبر والتضحية،
والتفاني في الذود عن الحق وقوة الإيمان^(٢٩)، ونظرة ممعنة
إلى كامل الديوان كافية لإعطاء صورة واضحة ورأي دقيق عن
عميق تطلعات المتنبي، وأبعاد مراميه.

أما أسلوب المتنبي فلقد حددنا أنه سلك فيه طريقين:
الطريق الأول أسلوبه في التعبير عن أحاسيسه
وعواطفه ولقد بدا هذا الأسلوب جلياً واضحاً عندما يتحدث
عن انفعالاته النفسية التي تضيء، على هذه النفس، التواقة
المتألمة المتألمة، شتى الألوان الزاهية المشرقة التي تزيد
النص الشعري دقة ووضوحاً وتأثيراً على القارئ والسامعين.

(٢٩) العريض. م.س. ص ١٢٣.

وإذا عرضت له خلال ذلك حكمة عقلية أو خاطرة فلسفية تجاوز تلك السلاسة واعتمد أشكالاً مختلفة من التعقيد كانت تملئها عليه ظروف تلك الخاطرة ويكون عنده هذا الأسلوب تعبيراً عن مقتضى الحال.

وأما الطريق الثاني، في أسلوب المتنبي، فهو ما حاول أن يجاري فيه طبيعة عصره مراعيّاً في ذلك المستويات التعبيرية التي توصلت إليها العبقرية العربية عبر مسيرتها الطويلة، في عمق تجربتها الشعرية وما خامر ذلك من التطور في الشكل والمضمون، امتداداً من العصر الجاهلي إلى آخر ما كان يدور في أيام أبي الطيب، مروراً بأبي نواس وابن الرومي وابن المعتز والبحتري وأبي تمام وانسجامة مع حركات العصر السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية. فأسلوبه بهذا الإطار كان يحتم عليه، حتى يكتب له سبق، أن يعتمد إلى الإتيان بكل شيء جديد فلجأ إلى الابتكار في الصور والمعاني لأنه بهذا الأسلوب إنما يخاطب الناس المميزين من أعيان الكلام بما فيهم الممدوحين، وعلى رأسهم سيف الدولة الذي كان أديباً وشاعراً وناقداً أديباً. فلذلك رأى المتنبي أن يكون كلامه متجاوزاً لأفهام وإبداعات الأقدمين والمعاصرين فأبدع أبو الطيب ما شاء له أن يبدع وأجاد ما أمكنه من الجود حتى خلد شعره على الأيام، فملاً

بذلك الدنيا وشغل الناس . ولم يملأ المتنبي الدنيا، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، إلا لأنه تصنع وأوغل في التصنع حتى غدا شعره، كما قلنا في غير هذا الموضع، يماً عميق الأغوار، متعدد الاتجاهات، يجد فيه الغواصون، مع الزمن، كل جديد، فلذلك بلغ عدد الكتب والدراسات التي وضعت حول ديوانه وشعره ما يزيد على الألفين . ولقد «كان لديه - المتنبي - من المهارة الفنية ما يستطيع أن يخفي به سمات هذا التصنع وما ينطوي عليه من تكلف شديد حتى ظن «اليازجي» - أحد شراح ديوانه - في الفصل البديع الذي عقب به على ديوانه، أن ما عند المتنبي من معجمات مستغلقة، إنما يقتصر على القسم الأول من شعره الذي نظمه في الحداثة . وهذا وهم من اليازجي ومن لف لفه، فقد استمرت هذه المستغلقات في شعره حتى الأنفاس الأخيرة من حياته، وغاية ما في الأمر أن مقدرة المتنبي على صوغ العبارة، ونمو هذه المقدرة على طول الزمن هو الذي يخفي على النقاد هذه الجوانب من التصنع» (٣٠) .

ومن الأمثلة على تصنعه قوله :

ألا كل ما شية الخَيْرَ لِي

فَدَى كل ما شية الهَيْدَبَى

(٣٠) شوقي ضيف . الفن ومذاهبه في الشعر . مصر . ص ٣٤٢ .

ألا ترى أنه يحشد هذه الألفاظ اللغوية حشداً حتى ينال إعجاب اللغويين من أصحاب الغريب؟ وفي ذلك يقول عنه صاحب بن عباد «ومن أهم ما يتعاطاه التفاسيح بالألفاظ النافرة والكلمات الشاذة، حتى كأنه وليد خباء وعذِي لبن لم يظاً الحضر، ولم يعرف المدر»^(٣١).

حتى انه ما كان المتنبي يصنع الشعر، على حد قول العكبري، إلا للفضلاء لذلك اهتم بالتأثير الشكلي على حد قوله:

قد كان يمنعني الحياء من البكا
فاليوم يمنعهُ البكا أن يمنعا
نلاحظ هنا كيف يعتمد في طرافته على أن يغلف عباراته بأصباغ الفلسفة إذ يحقق لنفسه أوصاف قوالها وتراكيبها. فالأسلوب الفلسفي عند المتنبي لم يستطع به أن ينفذ إلى لباب الصياغة الوجدانية بل بقي هنا يحوم حول قشرتها الخارجية.

وإضافة إلى استخدام الغريب في الحشد فإنه قد استخدم الغريب في الألفاظ من باب تحديه لأقطاب ذلك العصر من علماء اللغة كما في قوله:

(٣١) الثعالبي. نبتة الدهر. ج ١ ص ١٣٤.

جَفَحْتُ وهم لا يجفخون بها بهم

شيم على الحَسَبِ الأعز دلائل

وكان بإمكانه أن يستخدم فخرت مكان جفحت.

ولم يغرب عن بال المتنبي أن يتصنع الأساليب الشاذة

ليؤكد تفوقه بأساليب النحو، إذ كان به عالماً، كوفي المذهب

كما تستشف من خلال تربيته في كتاب العلويين، في حين أن

الناس عموماً قد أَلْفُوا أساليب البصريين النحوية، ومن ذلك

قوله وهو يرخم كلمة عَمَرِ الثلاثية الحروف:

أَجِدُّكَ مَا تَنْفِكُ عَانِ تَفْكُهُ

عَمَ بَنَ سَلِيمَان وَمَالاً تَقْسَمُ

«وذهب الكوفيون إلى أَنْ «أَنْ» الخفيفة تعمل في الفعل

المضارع النصب مع الحذف من غير بدل وذهب البصريون

إلى أنها لا تعمل من غير بدل»^(٣٢) وفي ذلك يقول المتنبي:

وتوقدت أنفاسنا حتى لقد

أشفقتُ تحترقُ العواذِلُ بيننا

فنصب بذلك «تحترق» من غير أن.

أما في موسيقى الشعر، فلم يكن المتنبي، في

أسلوبه، كلفاً بها ومعتمداً عليها. وإذا لم يكن الشاعر - أي

شاعر - وكذلك الموسيقي كلفاً بانسجام الأصوات في

(٣٢) ابن الإباري. الإنصاف. ص ٢٣٢.

توقيعاتها ونغماتها ورقة جرسها على الأذن فإنه، لا شك، سيحدث خللاً ظاهراً يسميه علماء الموسيقى نشازاً. وهذا النشاز من شأنه أن يوقع الاضطراب في تناغم الأصوات وتآلفها بحيث ترتاح إليها الأذن كلما أرادت تلك الأصوات، في انسجامها، رقة وإيناساً.

ولقد أحدث المتنبي في بعض شعره الكثير من النغمات الشاذة في مثل قوله:

وفاؤكما - كالربيع أشجاء طاسمه

بأن تُسعيدَا والدمع أسفاه ساجمه

حيث قدم وآخر في مفردات النص فأحدث في البيت اضطراباً ملحوظاً. وكان الأولى في الشطر الأول أن يقول: «وفاؤكما أشجاء طاسمه كالربيع». وكذلك قوله:

قلق المليحة - وهي مسك - هتكها

ومسيرها في الليل وهي ذكاء

وإذا تأملنا مواقع الكلام في الشطر الأول من الإعراب على الشكل التالي: مبتدأ، حال، خبر؛ وأما الشطر الثاني فنرى ترتيبه: مبتدأ، ظرف، حال، مع حذف الخبر للمعلم به، أي أن مسيرها في الليل هتك لها.

وبعد ما مر بنا «فقد كان المتنبي شاعراً ماهراً، استطاع بمهارته، أن يخفي حقيقة فنه وصناعته عن كثير من

المستمعين والنظارة، وأعانه، في ذلك، أنه كان صاحب صوت ضخم لا يرتفع به حتى يحدث جلبة شديدة. وهذا نفسه ما ضلل النقاد قديماً وحديثاً في فهمه، فقد تابعوه في وصفه للأعرايبات وتشاؤمه وحكمه وتمجيده للبطولة العربية، وفخره وطموحه إلى المعالي، وترفعه عن الدنايا، ونسوا نسياناً تاماً أنه شاعر متصنع يحترف الصناعة في شعره للثقافات المختلفة، إذ يحاول أن ينقل إيماءة شيعية أو صوفية، وشارة فلسفية، أو منطقية، وشارة لغوية أو نحوية، وشاردة تركيبية أو موسيقية، وبذلك - كله - كان قطعاً كبيراً في مذهب التصنع، بل لقد كان المفتاح الذي أخذت تتساقط منه نغمات هذا المذهب في قصائد الشعراء ونماذجهم» (٣٣).

لما جاء ابن جني في شرحه ديوان أبي الطيب إلى قوله في ممدوحه:

قد شَرَفَ اللهُ أرضاً أنت ساكنها

وشَرَفَ الناس إذ سواك إنسانا

قال (ابن جني): لا يعجبني قوله سواك لأنه لا يليق

بشرف ألفاظه. ولو قال: «انشاك» لكان أليق. قال

العروضي - أحد شراح المتنبي - سبحانه الله أتليق هذه اللفظة

بشرف القرآن، ولا تليق بلفظ المتنبي؟ قال تعالى: ﴿الذي

(٣٣) شوقي ضيف. م.س. ص ٣٤٩.

خلق فسوى»، وقال: ﴿فسواك فعدلك﴾ وقال ابن فورجة «قرأت على أبي العلاء، ومنزلته في الشعر ما قد علمه من كان ذا أدب. فقلت له يوماً في كلمة: ما ضر أبا الطيب لو قال مكان هذه الكلمة كلمة أخرى أوردتها، فأبان لي عوارها. ثم قال: «لا تظن أنك تقدر على إبدال كلمة واحدة من شعره بما هو خير منها، فجرّب إن كنت مرتاباً، وها أنذا أجرب ذلك منذ زمن فلم أعثر بكلمة لو أبدلتها بأخرى كانت أليق بمكانها. وليجرب من لم يصدق يجد الأمر على ما أقول» (٣٤).

«إذا كان المكان ضيقاً على المتنبي والزمن هراً، فإن له زماناً ومكاناً خاصّين وهما طليقان واسعان بلا تخوم. ذلك أنه مسكون بهاجس وحيد: ببداية أعمق أصلاً، وبكارة أكثر عذرية» (٣٥).

(٣٤) أبو الطيب المتنبي: حياته وشعره. المكتبة الحديثة. بيروت. ص ١٥.

(٣٥) أدونيس. مقدمة للشعر العربي. دار العودة. بيروت. ص ٥٥.

آراء بعض القدامى والمحدثين في شعر أبي الطيب وأخلاقه

قال ابن جني:

«ومن هنا تشبث قوم لا دراية لهم بعلم العربية بأشياء من ظاهر لفظه - الهاء تعود إلى المتنبي - إذ لم يكن لهم خبرة بدخيلة أمره، وحقاً أقول: لقد شاهدته على خلق قلما تكامل إلا لعالم موفق.

وأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها واستيفاءه إياها فمما لا يدفعه إلّا ضدّ ولا يستحسن معاندته إلّا ندّ، وما أحسبني رأيت أحداً غص من هذا الرجل وقتاً من الزمان إلّا وشاهدته بعد ذلك قد رجع عنه وعاد إلى تفضيله... وما لهذا الرجل الفاضل عيب عند هؤلاء السقطة الجهّال وذوي النذالة والسُّفال إلّا أنه متأخر محدث. وهل هذا - لو عقلوا - إلّا فضيلة له، ومنبهة عليه، لأنه جاء في زمان يعقم الخواطر، ويصدى الأذهان، فلم يزل فيه وحده بلا مضاء يساميه ولا نظير يعاليه».

وقال صاحب بن عباد:

«وكننت ذاكرت بعض من يتوسم بالأدب الأشعار
وقائلها والمجودين فيها. فسألني عن المتنبي فقلت: إنه
بعيد المرمى في شعره، كثير الإصابة في نظمه، إلا أنه ربما
يأتي بالفقرة الغراء مشفوعة بالكلمة العوراء».

وقال أبو القاسم الأصفهاني في إيضاح المشكل من شعر
المتنبي - كما رواه صاحب خزانة الأدب -:

«وأما الحكم عليه وعلى شعره: فهو سريع الهجوم
على المعاني؛ ونعت الخيل والحرب من خصائصه، وما كان
براد طبعه في شيء مما كان يسمح به. يقبل الساقط الرديء،
كما يقبل النادر البديع».

وقال القاضي الجرجاني في وساطته:

«وأنا أرى لك إذا كنت متوخياً للعدل، مؤثراً
للإنصاف أن تقسم شعره فتجعله في الصدر الأول تابعاً لأبي
تمام وفيما بعده واسطة بينه وبين مسلم - بن الوليد -
وأعلمناك أنه ليس بغيتنا الشهادة لأبي الطيب بالعصمة، ولا
مرادنا أن نبرأه من مفارقة زلة. وإن غايتنا أن نلحقه بأهل طبقته، ولا
نقصربه عن رتبته، وأن نجعله رجلاً من فحول الشعراء».

وقال أبو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر:

«وتكلم الأفاضل في الوساطة بينه وبين خصومه،
والإفصاح عن أبكار كلامه وعونه، وتفرقوا فرقاً في مدحه
والقدح فيه، والنضح عنه والتعصب له وعليه. وذلك أول
دليل على وفور فضله وتقدم قدمه، وتفرده عن أهل زمانه
بملك القواصي ورق المعاني، فالكامل من عدت سقطاته،
والسعيد من أحصيت هفواته.

وقال الشريف الرضي:

أما أبو تمام، فخطيب منبر، وأما البحتري فواصف
جؤذر وأما أبو الطيب فقائد عسكر.

أما أبو العلاء - المعري - فقد كان معجباً بأبي الطيب
ولذلك شرح ديوانه، مرتين وسماه في إحداهما «اللايع
العزبري» وفي الأخرى «معجز أحمد». وكان يتعصب
للمتنبي ويزعم أنه أشعر المحدثين ويفضله على بشار ومن
بعده كأبي نواس وأبي تمام.

وقال ابن شرف القيرواني في مقاماته:

وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن، وسهرت في
أشعاره الأعين، وكثر الناسخ لشعره، والأخذ لذكره،
والغائص في بحره، والمفتش في قعره عن جمانه ودره. وقد

طال فيه الخلف وكثر عنه الكشف. وله شبيعة تغلو في مدحه،
وعليه خوارج تتعايا في جرحه، والذي أقول: إن له حسنات
وسيثات، وحسناته أكثر عدداً وأقوى أمداً، وغرائبه طائفة،
وأمثاله سائرة، وعلمه فسيح، وميزه صحيح، يروم ويقدر،
ويدري ما يورد ويصدر...».

وقال ابن رشيق القيرواني في عمدته:

«ليس في المولدين أشهر اسماً من الحسن أبي
نواس، ثم حبيب - أبي تمام - والبحثري. ويقال انهما أخملا
في زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد... ثم جاء المتنبي
فملاً الدنيا وشغل الناس».

وقال علي بن حمدان الواحدي:

إنه كان صاحب معان مخترعة بديعة، ولطائف أفكار
لم يسبق إليها دقيقة، ولقد صدق من قال:
ما رأى الناس ثاني المتنبي
أي ثان يرى لبكر الزمان
هو في شعره نبي ولكن
ظهرت معجزاته في المعاني
آراء بعض المحدثين:

قال الدكتور عبد الوهاب عزام في «ذكرى أبي الطيب
بعد ألف عام»:

«لا مرء ان الرجل من كبار رجالنا، ولا ريب أنه أعظم شعرائنا على هفواته، وإن الشذوذ ليدل على قوة الحياة أحياناً وعلى الثقة بالنفس والاعتداد بالرأي».

قال الأستاذ كامل الكيلاني:

«لقد استفاد المتنبي من تجاربه في الحياة ما جعل شعره كأنه صوت القدر يملي على الناس قوانين الحياة».

وقال الدكتور زكي المحاسني في كتابه «المتنبي»:

«لقد احتل أبو الطيب المتنبي في أدب العرب مكانة رفيعة ارتقى إليها وتبجح فيها بقوة واقتدار، متعاضداً ومرغوباً فيه ولم يتح مثلها لغيره من شعراء العربية، وليس للحظ دخل في ذلك، فإن حساب الحظ يسقط في القيم الأدبية الخالدة، وكفى برأي الجرجاني، قاضي الرأي، بل قاضي الأدب، أن تناول الشاعر بما هو أهل في كتابه «الوساطة».

وقال الأستاذ شفيق جبري في كتابه «ماليء الدنيا وشاغل الناس» في حديثه عن رثاء أخت سيف الدولة:

«لقد استنزل أبو الطيب جلالة وحيه من جلالة الميت فظهرت آثار العظمة على شعره».

وقال الدكتور صالح الأشر في مقاله «لقاء بين الجاحظ والمتنبي»:

«وأما المتنبي قد وعى الفلسفة اليونانية وأثرها كبير في

حكيمته، وقد رد بعض المؤلفين أصول الحكمة في
شعرالمتنبي إلى كلمات مشهورة لأرسطو».

وقال الدكتور شوقي ضيف:

«قد تركزت في نفس المتنبي خصائص العرب حتى
لكأنما نفسه قطعة من جميع أنفسهم».

نماذج من شعر المتنبي

«عش عزيزاً أو مت وأنت كريم»

قال المتنبي هذه القصيدة في صباه وهي من البحر الخفيف

كَمْ قَتِيلٍ كَمَا قُتِلْتُ شَهِيدٍ
لِبَيَاضِ الطُّلَى وَوَرْدِ الْخُدُودِ^(١)
وَعُيُونِ الْمَهَا وَلَا كَعْيُونِ
فَتَكْتُ بِالْمَتَّيْمِ الْمَعْمُودِ^(٢)
دَرَّ دَرَّ الصُّبَاءِ أَيَّامَ تَجْرِيدِ
رَ دُيُولِي بَدَارِ أَثَلَّةٍ عُودِي^(٣)
عَمْرَكَ اللَّهُ! هَلْ رَأَيْتَ بُدُوراً
طَلَعَتْ فِي بَرَاقِعٍ وَعُقُودِ^(٤)
رَاجِعَاتٍ بِأَسْهُمٍ رِيْشُهَا الْهُدُ
بُ تَشْقُ الْقُلُوبَ قَبْلَ الْجُلُودِ^(٥)

(١) الطلى: جمع طلية وهي العنق.

(٢) المعمود: المفضى بالحب.

(٣) دَرَّ دره: أي كثر خيره ودفق. دار أثلة: موضع بنواحي الكوفة.

(٤) عمرك الله: أي أطال عمرك.

(٥) الأسهم: كناية عن النظرات.

يَتَرَشَّفْنَ مِنْ فَمِي رَشَفَاتٍ
هُنَّ فِيهِ حَلَاوَةُ التَّوْحِيدِ^(١)
كُلُّ خُمْصَانَةٍ أَرْقُ مِنْ الْخَمِ
بِ بَقْلٍ أَقْسَى مِنْ الْجُلْمُودِ^(٢)
ذَاتِ فَرْعٍ كَأَنَّمَا ضُرِبَ الْعَدِ
بَرٌّ فِيهِ بِمَاءٍ وَرِدٍ وَعُودِ^(٣)
حَالِكٍ كَالْغُذَافِ جَثَلٍ رَجُو
جِيْ أَثِيْثٍ جَفْدٍ بِلَا تَجْعِيْدِ^(٤)
تَحْمَلُ الْعِشْكَ عَنْ غَوَائِرِهَا الرِّيدِ
حُ وَتَفْتَرُ عَنْ شَنِيبٍ بَرُودِ^(٥)
جَمَعَتْ بَيْنَ جِسْمٍ أَحْمَدَ وَالسَّقِ
مَ وَبَيْنَ الْجَفَوْنَ وَالتَّسْهِيدِ^(٦)
هَذِهِ مُهْجَتِي لَدَيْكَ لَجِيْنِي
فَانْقُصِي مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِي

(١) التوحيد: نوع من تمر العراق.

(٢) الخمصانة: الحناء الضامرة البطن.

(٣) ذات فرع: نعت للخمصانة، والفرع هو لشعر الرأس.

(٤) الغداف: الغراب. الجثل: الكثيف. الأثيث: الكثيف.

(٥) تفتّر: تبسم.

(٦) أحمد: اسم أبي الطيب.

كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الدِّهَانِ حَرَامٌ
شُرْبُهُ مَا خَلَا ابْنَةُ الْعَنْقُودِ
فَاسْقِنِيهَا فِدَى لَعِينِكَ نَفْسِي
مِنْ غَزَالٍ وَطَارْفِي وَتَلِيدِي ^(١)
شَيْبُ رَأْسِي وَذَلِي وَنَحُولِي
وَدُمُوعِي عَلَى هَوَاكَ شُهُودِي
أَيُّ يَوْمٍ سَرَرْتَنِي بِوَصَالٍ
لَمْ تَرْغَنِي ثَلَاثَةَ بَصُودٍ
مَا مُقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا
كَمَقَامِ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ ^(٢)
مَفْرَشِي صَهْوَةِ الْحَصَانِ وَلَكِ
نُ قَمِيصِي مَسْرُودَةٍ مِنْ حَدِيدٍ
لَأُمَةٍ فَاضَةٍ أَضَاءَ دِلَاصُ
أَحْكَمَتْ نَسْجَهَا يَدَا دَاوُدَ ^(٣)
أَيْنَ فَضْلِي إِذَا قِنَعْتُ مِنَ الدَّهْرِ
بِزَيْشٍ مُعْجَلٍ التَّنْكِيدِ

(١) الطارف: المال المستحدث، التليد: المال القديم.

(٢) أرض نخلة: قرية لبني كلب عند بعلبك، إشارة إلى عداوة أبناء القرية له.

(٣) اللامة: الدرع. الفاضة: الواسعة، دلاص: لينة ملساء.

ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزِّ
 قَ قِيَامِي وَقَلَّ عَنْهُ قُعُودِي
 أَبْدَأُ أَقْطَعُ الْبِلَادَ وَنَجْمِي
 فِي نُحُوسٍ وَهَمَّتِي فِي سُعُودِ
 وَلَعَلِّي مُؤْمِلٌ بَعْضُ مَا أَبْ
 لَمَغُ بِالْقَلْفِ مِنْ عَزِيزٍ حَمِيدِ
 لِسَرِّي لِبَاسُهُ خَشِنُ الْقُطْ
 بِنِ وَمَرْوِيٍّ مَرَوْ لِبَسُ الْقُرُودِ^(١)
 عِشْ عَزِيزاً أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ
 بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ^(٢)
 فَرُؤُوسُ الرِّمَاحِ أَذْهَبُ لِلْفَيْ
 ظِ وَأَشْفَى لِغَلِّ صَدْرِ الْحَقُودِ^(٣)
 لَا كَمَا قَدْ حَيِّثَ غَيْرَ حَمِيدِ
 وَإِذَا مُتُّ مُتُّ غَيْرَ فَقِيدِ
 فَاطْلُبِ الْعِزَّ فِي لَظَى وَدَعِ الذَّ
 لَّ وَلَوْ كَانَ فِي جَنَانِ الْخُلُودِ

(١) السري: الشريف، يعني نفسه، المروي: ثياب نسبة إلى مرو وهي بلد بفارس.

(٢) البنود: الأعلام الكبيرة. القنا: الرماح.

(٣) الغل: الحقد.

لَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُّفُوا بِي
 وَبِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجَدُودِي
 وَبِهِمْ فَخَرُّ كُلِّ مَنْ نَطَقَ الضَّادُ
 ذَ وَعَوُذُ الْجَانِي وَعَوُثُ الطَّرِيدِ^(١)
 إِنْ أَكُنْ مُعْجَبًا فَمُعْجَبٌ عَجِيبٌ
 لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدٍ
 أَنَا تَرْبُ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي
 وَسِمَامُ الْعِدَى وَغِيظُ الْحَسُودِ
 أَنَا فِي أَمَةٍ تَذَارَكُهَا الدُّ
 هُ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودٍ
 مَا الْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتَكَةُ الْبَكْرُ

قال المتنبي هذه القصيدة يمدح علي بن
 أحمد الأنطاكي، وهي من البحر الطويل

أَطَاعِنُ خَيْلًا مِنْ فَوَارِسِهَا الدُّعْرُ
 وَجَيْدًا وَمَا قَوْلِي كَذَا وَمَعِيَ الصَّبْرُ
 وَأَشْجَعُ مِنِّي كُلِّ يَوْمٍ سَلَامَتِي
 وَمَا ثَبَّتَتْ إِلَّا وَفِي نَفْسِهَا أَمْرُ
 تَمَرَّسْتُ بِالْأَفَاتِ حَتَّى تَرَكْتُهَا
 تَقُولُ أَمَاتَ الْمَوْتُ أَمْ دُجِرَ الدُّعْرُ

(١) نطق الضاد: العرب. العوذ: اللجوء والحماية. الغوث: النصرة.

وَأَقْدَمْتُ إِقْدَامَ الْآتِي كَانَ لِي
 سِوَى مُهْجَتِي أَوْ كَانَ لِي عِنْدَهَا وَثَرٌ^(١)
 ذِرَ النَّفْسِ تَأْخُذُ وَشَعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
 فَمُفْتَرِقُ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ^(٢)
 وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًا وَقَيْنَةً
 فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتَكَةُ الْبِكْرُ
 وَتَضْرِبُ أَغْنَاكِ الْمُلُوكِ وَأَنْ تُرَى
 لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالْعُسْكَرُ الْمَجْرُ^(٣)
 وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا ذَوِيًا كَأَنَّمَا
 تَدَاوَلَ سَمْعُ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ
 إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ
 عَلَى هِبَةٍ فَالْفَضْلُ فِيمَنْ لَهُ الشُّكْرُ
 وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ
 مَخَافَةً فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ
 عَلَيَّ لِأَهْلِ الْجَوْرِ كُلِّ طِمْرَةٍ
 عَلَيْهَا غُلَامٌ مِثْلُ خَيْرُومِهِ غَمْرُ^(٤)

(١) الوتر: الثار.

(٢) ذر: دع. الوسع: الطاقة. الجاران: قصد بهما الجد والروح.

(٣) الهبوات: الغبرات. المجر: الكثير.

(٤) الطمرة: الفرس الوثابة. الحيزوم: الصدر. الغمر: الحقد.

يُدِيرُ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ عَلَيْهِمْ
كُؤُوسَ الْمَنَايَا حَيْثُ لَا تُشْتَهَى الْخَمْرُ
وَكَمْ مِنْ جِبَالٍ جَبَتْ تَشْهَدُ أَنَّنِي أَلِ
جِبَالٍ وَبَحْرٍ شَاهِدٌ أَنَّنِي الْبَحْرُ^(١)
وَحَرَقِي مَكَانَ الْعَيْسِ مِنْهُ مَكَائِنَا
مِنْ الْعَيْسِ فِيهِ وَاسْطُ الْكُورِ وَالظُّهْرُ
يَخْدُنَ بِنَا فِي جَوْزِهِ وَكَأَنَّنَا
عَلَى كُرَّةٍ أَوْ أَرْضُهُ مَعَنَا سَفَرُ^(٢)
وَيَوْمٍ وَصَلْنَاهُ بَلِيلٍ كَأَنَّمَا
عَلَى أَفْقِهِ مِنْ بَرْقِهِ حُلُلٌ حُمْرُ
وَلَيْلٍ وَصَلْنَاهُ بِيَوْمٍ كَأَنَّمَا
عَلَى مَتْنِهِ مِنْ دَجْنِهِ حُلُلٌ خُضَرُ^(٣)
وَعَيْثُ ظَنَّنَا تَحْتَهُ أَنَّ عَامِرًا
عَلَا لَمْ يَمُتْ أَوْ فِي السَّحَابِ لَهُ قَبْرُ
أَوْ ابْنُ ابْنِهِ الْبَاقِي عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ
يَجُودُ بِهِ لَوْ لَمْ أَجْزُ وَيَدِي صِفْرُ

(١) جبت: اجترت.

(٢) يخذعن: يسرعن. جوزة: وسطه.

(٣) الدجن: تلبد السماء بالغيوم.

وَإِنْ سَحَاباً جُودُهُ مِثْلُ جُودِهِ
 سَحَابٌ عَلَى كُلِّ السَّحَابِ لَهُ فَخْرُ
 فَتَى لَا يَضُمُّ الْقَلْبُ هِمَاتِ قَلْبِهِ
 وَلَوْ ضَمَّهَا قَلْبٌ لَمَا ضَمَّهُ صَدْرُ
 وَلَا يَنْفَعُ الْإِمْكَانُ لَوْلَا سَخَاؤُهُ
 وَهَلْ نَافِعٌ لَوْلَا الْكَفُّ الْقَنَا السُّمُرُ^(١)
 قِرَانُ تَلَاقِي الصَّلْتِ فِيهِ وَعَامِرُ
 كَمَا يَتَلَاقَى الْهِنْدُوَانِيُّ وَالنَّصْرُ^(٢)
 فَجَاءَ بِهِ صَلَّتِ الْجَبِينُ مُعْظَمًا
 تَرَى النَّاسَ قَلًا حَوْلَهُ وَهُمْ كَثْرُ
 مُفَدَّى بِأَبَاءِ الرِّجَالِ سَمِيدْعَا
 هُوَ الْكَرْمُ الْمَدُّ الَّذِي مَالَهُ جَزْرُ^(٣)
 وَمَا زِلْتُ حَتَّى قَادَنِي الشُّوقُ نَحْوَهُ
 يُسَايِرُنِي فِي كُلِّ رُكْبٍ لَهُ ذِكْرُ
 وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ
 فَلَمَّا التَّقِينَا صَغَّرَ الْخَبَرَ الْخَبْرُ

(١) الإمكان: أي اليسر. السمر: من صفات الرماح.

(٢) الصلت: جد الممدوح لأمه. عامر: جده لأبيه. الهندواني: السيف المنسوب إلى الهند.

(٣) السميزع: الكريم.

إِلَيْكَ طَعَنَّا فِي مَدَى كُلِّ صَفْصَفٍ
بِكُلِّ وَآةٍ، كُلُّ مَا لَقِيتُ نَحْرُ^(١)
إِذَا وَرِمْتُ مِنْ لَسَعَةٍ مَرِحْتُ لَهَا
كَأَنَّ نَوَالاً صَرُّ فِي جِلْدِهَا النَّبْرُ^(٢)
فَجِئْنَاكَ دُونَ الشَّمْسِ وَالْبَدْرِ فِي النَّوَى
وَدُونِكَ فِي أَحْوَالِكَ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ
كَأَنَّكَ بَرْدُ الْمَاءِ لَا عَيْشَ دُونَهُ
وَلَوْ كُنْتُ بَرْدُ الْمَاءِ لَمْ يَكُنِ الْعِشْرُ^(٣)
دَعَانِي إِلَيْكَ الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالْحَجَى
وَهَذَا الْكَلَامُ النِّظْمُ وَالنَّائِلُ التَّشْرُ
وَمَا قُلْتُ مِنْ شَيْءٍ تَكَادُ بَيُوتُهُ
إِذَا كُتِبَتْ يَبْيَضُ مِنْ نَوْرِهَا الْحَبْرُ
كَأَنَّ الْمَعَانِي فِي فَصَاحَةِ لَفْظِهَا
نَجُومُ الشَّرِيبَا أَوْ خِلَافَتُكَ الزُّهْرُ
وَجَنِبِي قُرْبَ السَّلَاطِينِ مَقْتَهَا
وَمَا يَقْتَضِينِي مِنْ جَمَاجِمِهَا النَّشْرُ

(١) الصفصف: الأرض المستوية. الوآة: السريعة الشديدة.

(٢) النبر: دوية تلسع الإبل.

(٣) العشر: ورود الإبل على الماء كل عشرة أيام وهو أشد حالات الظما عندها.

وَإِنِّي رَأَيْتُ الضَّرَّ أَحْسَنَ مَنْظَرًا
 وَأَهْوَنَ مِنْ مَرَأَى صَغِيرٍ بِهِ كِبَرُ^(١)
 لِسَانِي وَعَيْنِي وَالْفُؤَادَ وَهَمَّتِي
 أَوْدُ اللَّوَاتِي ذَا اسْمُهَا مِنْكَ وَالشَّطْرُ
 وَمَا أَنَا وَحْدِي قُلْتُ ذَا الشَّعْرَ كُلَّهُ
 وَلَكِنْ لَشَعْرِي فِيكَ مِنْ نَفْسِهِ شَعْرُ
 وَمَاذَا الَّذِي فِيهِ مِنْ الْحَسَنِ رَوْنَقًا
 وَلَكِنْ بَدَا فِي وَجْهِهِ نَحْوُكَ الْبِشْرُ
 وَإِنِّي وَلَوْ نِلْتِ السَّمَاءَ لِعَالَمُ
 بِأَنَّكَ مَا نِلْتَ الَّذِي يَوْجِبُ الْقَدْرُ
 أَزَالَتْ بِكَ الْأَيَّامُ عَثْبِي كَأَنَّمَا
 بَنُوها لَهَا ذَنْبٌ وَأَنْتَ لَهَا عُذْرُ
 وَإِذَا أَتَيْتَكَ مَذْمَتِي مِنْ نَاقِصٍ

يمدح المتنبي، في هذه القصيدة، القاضي أبا الفضل

أحمد بن عبد الله بن الحسين الأنطاكي

لَكَ يَا مَنَازِلُ فِي الْقُلُوبِ مَنَازِلُ
 أَقْفَرْتَ أَنْتَ وَمَنْ مِنْكَ أَوَاهِلُ^(٢)

(١) الضر: الفقر وسوء الحال.

(٢) الأواهل: ذوات الأهل.

يَعْلَمَنَّ ذَاكَ وَمَا عَلِمْتَ وَإِنَّمَا
أُولَٰئِكَ مَا يُتَكَىٰ عَلَيْهِ الْعَاقِلُ^(١)
وَأَنَا الَّذِي اجْتَلَبَ الْمَنِيَّةَ طَرَفُهُ
فَمِنَ الْمُطَالِبِ وَالْقَتِيلِ الْقَاتِلُ^(٢)
تَخْلُو الدِّيَارُ مِنَ الظُّبَاءِ وَعِنْدَهُ
مِنْ كُلِّ تَابِعَةٍ خِيَالٌ خَازِلُ^(٣)
اللَّاءِ أَفْتَكُّهَا الْجَبَانَ بِمُهْجَتِي
وَأَحِبُّهَا قُرْبًا إِلَيَّ الْبَاخِلُ^(٤)
الرَّامِيَاتُ لَنَا وَهُنَّ نَوَافِرُ
وَالْخَاتَلَاتُ لَنَا وَهُنَّ غَوَافِلُ^(٥)
كَافَأْنَنَا عَنْ شَبَهِيهِنَّ مِنَ الْمَهَا
فَلَهُنَّ فِي غَيْرِ التَّرَابِ حَبَائِلُ^(٦)

(١) ذَاكَ: خطاب للمنازل.

(٢) المنية: الموت. الطرف: البصر.

(٣) الظباء: الغزلان. التابغة: الظبية الصغيرة تتبع أمها. الخاذل: الذي

تخلف عن القوم ولم يسرع لنصرتهم.

(٤) اللاء: بدل من الظباء وهي بمعنى اللواتي. افتكها: أكثرها إيذاء

وإيجاعاً.

(٥) الخاتلات: اللواتي يؤذين عن غير قصد منهن أثناء غفلتهن.

(٦) المها: بقر الوحش وهو ممتاز بجمال العيون. الحبائل: جمع جباله وهي

الشرك، الفخ، ينصب للصيد.

من طاعني تُغَرَّ الرجال جَاذِرٌ
 ومن الرماح دمالج وخلاخل^(١)
 ولذا اسْمُ أعطية العيون جفونها
 من أنها عمل السيوف عَوَامِلُ^(٢)
 كم وقفية سَجَرَتِكَ شَوْقًا بَعْدَمَا
 غَرِي الرقيب بنا وَلَجُ العَاذِلُ^(٣)
 دون التعماتق ناحلين كَشَكَلَتِي
 نصبٍ أَذَقَهُمَا وَضَمَّ الشَّاكِلُ^(٤)
 إنعم وَلَذَّ فللامور أَوَاخِرُ
 أبداً إذا كانت لَهُنَّ أَوَائِلُ^(٥)

(١) الثَّغَرُ: جمع ثغرة وهي نقرة التحريين الترقوتين وهما ما يربطان الصدر برأس الكتف إلى طرف الذراع. الجَاذِرُ: صغار بقر الوحش وواحدُها جَوَذِر. الدمالج جمع دملج وهو زينة معدنية توضع في العضد. والخلاخل من الخلخال الذي يوضع في الكرعوب.

(٢) الجفون: الشعر ينبت على حواشي العين.

(٣) سَجَرَتِكَ: ملاتك وألهتك. ويروي شجرتك أي حبستك: منعتك عن الكلام. ويروي: سحرتك: أي جذبتك إليها لسحرها وجمالها. وغري به: أولع بحبه، اللجاج: التماذي في المماحكة.

(٤) الشاكل: الذي يرسم شكل الكتاب.

(٥) لَذَّ: تمتع مستانساً.

مَا دُمْتَ مِنْ أَرْبِ الْحَسَانِ فَلِنَمَا
 رَوْقُ الشَّبَابِ عَلَيْكَ ظِلٌّ زَائِلٌ^(١)
 لِلَّهِوَ آوْنَةٌ تَمُرُّ كَأَنَّهَا
 قُبُلٌ يُزَوِّدُهَا حَبِيبٌ رَاجِلٌ^(٢)
 جَمَعَ الزَّمَانُ فَلَا لَذِيذٌ خَالِصٌ
 بِمِمَّا يَشُوبُ وَلَا سُرُورٌ كَامِلٌ^(٣)
 حَتَّى أَبُو الْفَضْلِ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ رُوِيَ
 يَتْنُهُ الْمُنَى وَهِيَ الْمَقَامُ الْهَائِلُ^(٤)
 مَمْطُورَةٌ طُرْقِي إِلَيْهَا دُونَهَا
 مِنْ جُودِهِ فِي كُلِّ فَجٍّ وَابِلٌ
 مَخْجُوبَةٌ بِسُرَادِقٍ مِنْ هَيْبَةٍ
 تَشْنِي الْأَزْمَةَ وَالْمَضْيُ دَوَائِلُ
 لِلشَّمْسِ فِيهِ وَلِلسَّحَابِ وَلِلْبَحَا
 رٍ وَلِلْأَسْوَدِ وَلِلرِّيَّاحِ شَمَائِلُ^(٥)

(١) الأرب الحاجة. روق الشباب: أوله وأفضله.

(٢) الآونة: اللحظة.

(٣) الجامع: من لا يمكن رده. يشوب: يخالط.

(٤) أبو الفضل: كنية الممدوح.

(٥) شمائل: خلق وطباع.

لَو لَمْ يَهَبْ لِحَبِّ الْوَفُودِ حَوَالَهُ
 لَسَرَى إِلَيْهِ قَطَا الْفَلَاةِ النَّاهِلُ^(١)
 يَذْرِي بِمَا بِكَ قَبْلَ تَظْهِرُهُ لَهُ
 مِنْ ذَهَبِهِ قَبْلَ تَسَائِلُ
 وَتَرَاهُ مُغْتَرِضاً لَهَا وَمَوْلِياً
 أَحَدَاقُنَا وَتَحَارُ جَيْنَ يُقَابِلُ^(٢)
 كَلِمَاتُهُ قُضْبٌ وَهُنَّ فَوَاصِلُ
 كُلُّ الضَّرَائِبِ تَخْتَهُنَ مَفَاصِلُ^(٣)
 هَزَمْتُ مَكَارِمُهُ الْمَكَارِمَ كُلَّهَا
 حَتَّى كَأَنَّ الْمَكْرُمَاتِ قَنَابِلُ^(٤)
 وَقَتَلْتُ دَفراً وَالذَّهْمِيمَ فَمَا تَرَى
 أُمُّ الذَّهْمِيمِ وَأُمُّ دَفَرٍ ثَاكِلُ^(٥)

(١) اللجب: الضجيج. الوفود: الوافدون لطلب العطاء. الناهل: الوارد على الماء.

(٢) الحديقة: معظم السواد من العين.

(٣) القضب: السيوف. فواصل: قواطع. الضرائب: جمع ضريبة وهو المضروب بالسيف.

(٤) القنابل: جمع قنبلة وهي المجموعة من الثلاثين حتى الأربعين فرساً.

(٥) يقولون عن المصيبة أم دفر وأم الدهيم، ومعنى الدفر التثنية، كنيبت المصيبة بها لتتها. الرهيم: ناقة كانت لعمر بن الريان الذهلي قتل هو وأخوته وحملت رؤوسهم عليها فصارت مثلاً في الشؤم.

عَلاَقَةُ الْعُلَمَاءِ وَاللُّجُ الَّذِي
 لَا يَنْتَهِي وَلِكُلِّ لُجٍّ سَاجِلٌ
 لَوْ طَابَ مَوْلِدُ كُلِّ حَيٍّ مِثْلُهُ
 وَلَدَ النِّسَاءِ وَمَا لَهُنَّ قَوَائِلُ
 لَوْ بَانَ بِالكَرَمِ الْجَنِينُ بَيَانُهُ
 لَدَرْتُ بِهِ ذَكَرُ أُمِّ انْثَى الْحَامِلُ
 لِيَزِدَ بَنُو الْحَسَنِ الشُّرَافُ تَوَاضَعًا
 هَيْهَاتَ تُكْتَمُ فِي الظَّلَامِ مَشَاعِلُ
 جَفَخْتُ وَهُمْ لَا يَجْفَخُونَ بِهَا بِهِمْ
 شَيْمٌ عَلَى الْحَسَبِ الْأَعْرُ دَلَائِلُ^(١)
 مُتَشَابَهُو وَرَعَ النُّفُوسِ كَبِيرُهُمْ
 وَصَغِيرُهُمْ عَفَا الْإِزَارِ حُلَاجِلُ^(٢)
 يَا أَفْخَرَ فَإِنَّ النَّاسَ فِيكَ ثَلَاثَةٌ
 مُسْتَفْظِمٌ أَوْ حَاسِدٌ أَوْ جَاهِلٌ
 وَلَقَدْ عَلَوْتُ فَمَا تُبَالِي بَعْدَمَا
 عَرَفُوا أَيَحْمَدُ أَمْ يَذُمُّ الْقَائِلُ
 أَنِّي عَلَيْكَ وَلَوْ تَشَاءُ لَقُلْتُ لِي
 قَصَّرْتُ فَالْإِمْسَاكَ عَنِّي نَائِلُ

(١) جفخت: فخرت وتكبرت. الشيم: الأخلاق والطباع.

(٢) الحلاج: السيد الركين.

لَا تَجْسُرُ الْفَصَحَاءُ تُنْشِدُ هَهُنَا
 بَيْتًا وَلَكِنِّي الْهَزْبَرُ الْبَاسِلُ^(١)
 مَا نَالَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَةِ كُلُّهُمْ
 شِغْرِي وَلَا سَمِعَتْ بِسَحْرِي بَابِلُ^(٢)
 وَإِذَا أَنْتَكَ مَذْمُوتِي مِنْ نَاقِصٍ
 فَهِيَ الشَّهَادَةُ لِي بِأَنِّي كَامِلُ
 مَنْ لِي بِفَهْمٍ أَهْمِلُ غَضِرٍ يَدْعِي
 أَنْ يَحْسَبَ الْهِنْدِيُّ فِيهِمْ بِاقِلُ
 وَأَمَّا وَحَقِّكَ وَفَوَ غَايَةِ مُقْسِمٍ
 لَلْحَقِّ أَنْتَ وَمَا سِوَاكَ الْبَاطِلُ
 الطَّيِّبُ أَنْتَ إِذَا أَصَابَكَ طَيِّبُهُ
 وَالْمَاءُ أَنْتَ إِذَا أَغْتَسَلْتَ الْغَائِلُ
 مَا دَارَ فِي الْحَنَكِ اللِّسَانُ وَقَلْبَتْ
 قَلَمًا بِأَحْسَنَ مِنْ ثَنَاكَ أَنْامِلُ

(١) الهزبر: الأسد الشديد القوة.

(٢) بابل: مدينة مشهورة وقد اشتهرت بالسحر..

لا افتخار إلا لمن لا يضام

قال المتنبي هذه القصيدة في مدح علي بن أحمد
المري الخراساني وهي من البحر الخفيف

لا افتخارُ إلا لمن لا يُضامُ
مُذْرِكُ أو مُحَارِبُ لا يَنَامُ
لَيْسَ عَزْمًا ما مَرَضَ المرءُ فيه
لَيْسَ هَمًّا ما عاق عنه الظلامُ^(١)
واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانبِ
ه غِذاءٌ تَضَوَّى به الأصيامُ^(٢)
ذَلٌّ مِنْ يَغْبِطُ الذَّلِيلَ بعِيشِ
رُبِّ غَيْشٍ أَخَفَّ مِنْهُ الْجِمَامُ
كُلُّ جِلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدَارِ
حُجَّةٌ لاجيءٌ إليها اللَّثَامُ
مَنْ يَهْنُ يَسْهَلِ الهَوَانُ عليه
ما لَجَرَجٍ بِمَيْتٍ إِيلَامُ
ضاقَ ذرعاً بأنَّ أضيَّقَ به ذَرٌّ
عاً زَمَانِي واستكرمتني الكرامُ

(١) مَرَضَ: قصر.

(٢) تَضَوَّى: تهزل.

واقفاً تحتَ أخمَصِي قَذِرِ نَفْسِي
 واقفاً تحتَ أخمَصِي الأَنَامُ^(١)
 أقراراً الذُّ فَوْقَ شرارِ
 ومراماً أبغي وظلمي يُرامُ
 دون أن يَشْرَقَ الحجازُ ونجدُ
 والعراقانِ بالقنا والشَّامُ^(٢)
 شَرَفَ الجَوِّ بالغُبارِ إذا سا
 رَ عليُّ بنُ أحمدَ القمقامُ
 الأديبُ المَهْدُبُ الأصيلُ الضَّرُ
 بُ الذكيُّ الجَعْدُ السَّريُّ الهَمَامُ^(٣)
 يتداوى من كثرة المالِ بالإق
 لالِ جوداً كأنَّ مالاً سقامُ
 حَسَنُ في عيونِ أعدائه أق
 بجُ من ضيفِهِ رَأَتْهُ السَّوَامُ
 لوحى سِيداً من الموتِ حامِ
 لحماهُ الإجلالُ والإعظامُ

(١) الأخمص: ما لا يمس الأرض من باطن القدم.

(٢) شَرَقَ: غَضَّ. العراقيين: أي العراق العربي والعراق الأعجمي.

(٣) الأصيل: الملك الرزين. الضرب: الماضي في الأمور. الجعد: الكريم.

كُتِبَتْ فِي صَحَائِفِ الْمَجْدِ: بِسْمُ
ثُمَّ قَيْسٌ وَيَعْقَدُ قَيْسُ السَّلَامُ^(١)
إِنَّمَا مُرَّةٌ بَنُ عَوْفٍ بِنِ سَعْدٍ
جَمَرَاتٌ لَا تَشْتَهِيهَا التُّغَامُ
لَيْلُهَا صُبْحُهَا مِنَ النَّارِ وَالْإِصْدِ
جَاحٌ لَيْلٌ مِنَ الدُّخَانِ يَمَامُ^(٢)
هَمَمٌ بَلَفَتْكُمْ رُتَبَاتُ
قَصُرَتْ عَنْ بُلُوغِهَا الْأَوْهَامُ
وَنُفُوسٌ إِذَا انْبَرَتْ لِقِتَالِ
نَفِذَتْ قَبْلَ يَنْفَذُ الْإِقْدَامُ
وَقُلُوبٌ مُوْطِنَاتٌ عَلَى الرَّوْ
عِ كَانَ اقْتِحَامُهَا اسْتِسْلَامُ
قَائِدُو كُلِّ شَطْبَةٍ وَجِصَانِ
قَدْ بَرَاهَا الْإِسْرَاجُ وَالْإِلْجَامُ^(٣)
يَتَعَثَّرُونَ بِالرُّؤُوسِ كَمَا مَرَّ
بِتَاءَاتٍ نُطْقِهِ الثَّمَنَامُ

(١) قيس قبيلة الممدوح. بسم: تفتح بها الكتب، وتختتم بالسلام، أي لا يوجد في حكايف المجد إلا قيس.

(٢) ليل التمام: أطول ليالي الشتاء، وهو شديد الظلمة.

(٣) الشطبة: الفرس الطويلة. براها أنحلها.

طَالَ غَثِيَانُكَ الْكَرِيهَةَ حَتَّى
 قَالَ فِيكَ الَّذِي أَقُولُ الْحُسَامُ
 وَكَفَتَكَ الصَّفَائِحُ النَّاسُ حَتَّى
 قَدْ كَفَتَكَ الصَّفَائِحُ الْأَقْلَامُ^(١)
 وَكَفَتَكَ التَّجَارِبُ الْفِكْرَ حَتَّى
 قَدْ كَفَاكَ التَّجَارِبُ الْإِلَهَامُ
 فَارْسُ يَشْتَرِي بِرَأْزِكَ لَلْفَخِ
 بِرِ بَقْتُلِ مُعْجَلٍ لَا يُلَامُ
 نَائِلُ مِنْكَ نَظْرَةً سَاقَهُ النَّصْرُ
 رُ عَلَيْهِ لَفَقْرِهِ إِنْعَامُ
 خَيْرُ أَعْضَائِنَا الرُّؤُوسُ وَلَكِنْ
 فَضَّلْتَهَا بِقَصْدِكَ الْأَقْدَامُ
 قَدْ لَعَمْرِي أَقْصَرْتُ عَنْكَ وَلِلْوَفِ
 بِدِ اَزْدَحَامُ وَلِلْعَطَايَا اَزْدَحَامُ
 خِفْتُ إِنْ صِرْتُ فِي يَمِينِكَ أَنْ تَأْ
 خُذْنِي فِي هَبَاتِكَ الْأَقْوَامُ
 وَمِنْ الرُّشْدِ لَمْ أَرْزُكَ عَلَى الْقُرْ
 بٍ، عَلَى الْبُعْدِ يُعْرِفُ الْإِلْمَامُ^(٢)

(١) الصفائح: السيوف العريضة الشفرات.

(٢) الرشد: الإصابة في الرأي. الإلمام: الزيارة.

وَمِنْ الْخَيْرِ بَطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي
 أَسْرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامُ^(١)
 قُلْ فَكَمْ مِنْ جَوَاهِرٍ بِنِظَامٍ
 وَدُّهَا أَنَّهَا بِفِيكَ كَلَامٌ
 هَابَكَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ فَلَوْ تَد
 هَاهُمَا لَمْ تَجْزُ بِكَ الْآيَامُ^(٢)
 حَسْبُكَ اللَّهُ مَا تَضَلُّ عَنْ الْحَدِّ
 قَوْلاً وَلَا يَهْتَدِي إِلَيْكَ أَثَامٌ
 لِمَ لَا تَحْذَرُ الْعَوَاقِبَ فِي غِي
 رِ الدَّنَايَا، أَمَا عَلَيْكَ حَرَامٌ
 كَمْ حَبِيبٌ لَا عُذْرَ لِلتُّؤَمِّ فِيهِ
 لَكَ فِيهِ مِنَ التَّنْقَى لَوَامٌ
 رَفَعْتَ قَدْرَكَ النِّزَاهَةَ عَنْهُ
 وَثَنَتْ قَلْبَكَ الْمَسَاعِي الْجِسَامُ
 إِنَّ بَعْضاً مِنَ الْقَرِيضِ هَذَا
 لَيْسَ شَيْئاً وَبَعْضُهُ أَحْكَامُ^(٣)

(١) السيب: العطاء: الجهام: الذي لا ماء فيه.

(٢) تجز: تمر. هابك: خافك.

(٣) القرية: الشعر. الهذيان: الهذيان. الأحكام: جمع حكم بمعنى حكمة.

مِنْهُ مَا يَجْلُبُ الْبِرَاعَةَ وَالْفَضْلَ
لِ وَمِنْهُ مَا يَجْلُبُ الْبِرْسَامُ^(١)

لكل امرئ من دهره ما تعودا
قال المتنبي هذه القصيدة يهنيء سيف الدولة بعيد الأضحى
وهما على فرسيهما، وهي من البحر الطويل
لكل امرئ من دهره ما تعودا
وعادة سيف الدولة الطعن في العدى
وأن يكذب الإرجاف عنه بضده
وئمسي بما تنوي أعاديهِ أسعدا
ورب مريد ضرة ضر نفسه
وهاد إليه الجيش أهدى وما هدى
ومستكبر لم يعرف الله ساعة
رأى سيفه في كفه فتشهدا
هو البحر غص فيه إذا كان ساكنا
على الدر وأخذره إذا كان مزيدا
فلاني رأيت البحر يغثر بالفتى
وهذا الذي يأتي الفتى متعمدا
تظل ملوك الأرض خاشعة له
تفارقهُ هلكى وتلقاه سجدًا

(١) البرسام: مرض مجلب للذهي.

وَتُخَيِّ لَه الْمَالُ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا
وَيَقْتُلُ مَا تَحْيِي التَّبَسُّمُ وَالْجَدَا^(١)
ذَكِيُّ تَظْنِيهِ طَلِيْعَةُ عَيْنِهِ
يَرَى قَلْبُهُ فِي يَوْمِهِ مَا تَرَى غَدَا
وَصُورٌ إِلَى الْمُسْتَصْعِبَاتِ بِخَيْلِهِ
فَلَوْ كَانَ قَرْنُ الشَّمْسِ مَاءً لَاوَرَدَا^(٢)
لَذَلِكَ سَمَى ابْنُ الدُّمُسْتَقِ يَوْمَهُ
مَمَاتًا وَسَمَاهُ الدُّمُسْتَقُ مَوْلِدًا
سَرِيَتْ إِلَى جِيحَانَ مِنْ أَرْضِ أَمِدٍ
ثَلَاثًا، لَقَدْ أَدْنَاكَ رَكْضُ وَأَبْعَدَا^(٣)
فَوَلَّى وَأَعْطَاكَ ابْنَهُ وَجُيُوشَهُ
جَمِيعًا وَلَمْ يُعْطِ الْجَمِيعَ لِيُحْمَدَا
عَرَضَتْ لَهُ دُونَ الْحَيَاةِ وَطَرْفِهِ
وَأَبْصَرَ سَيْفَ اللَّهِ مِنْكَ مُجَرَّدَا
وَمَا طَلَبْتَ زُرْقَ الْأَسْنَةِ غَيْرَهُ
وَلَكِنْ قَسْطَنْطِينُ كَانَ لَهُ الْفِدَى

(١) الصَّوَارِمُ: السيوف. القَنَا: الرماح. الجَدَا: المعطاء.

(٢) قرن الشمس: أول ما يظهر منها عند الطلوع.

(٣) سريت: مثبت ليلاً. جيحان: اسم نهر رومي. أمد: بلد في الغفور.

فاصْبَحْ يَجْتَابُ الْمُسُوحَ مَخَافَةً
 وَقَدْ كَانَ يَجْتَابُ الدَّلَاصَ الْمَسْرُودًا^(١)
 ويمشي به العُكَازُ فِي الدِيرِ تَائِبًا
 وما كَانَ يَرْضَى مَشْيَ أَشْقَرٍ أَجْرَدًا
 وما تَابَ حَتَّى غَادَرَ الْكَرَّ وَجْهَهُ
 جَرِيحًا وَخَلَّى جَفْنَهُ النَّقْعَ أَرْمَدًا
 هَنِئًا لَكَ الْعِيدُ الَّذِي أَنْتَ عِيدُهُ
 وَعِيدُ لِمَنْ سَمَى وَضَحَى وَعَبِيدًا
 وَلَا زَالَتِ الْأَعْيَادُ لُبْسَكَ بَعْدَهُ
 تُسَلِّمُ مَخْرُوقًا وَتُعْطِي مُجْدَّدًا
 فَذَا الْيَوْمُ فِي الْأَيَّامِ مِثْلَكَ فِي الْوَرَى
 كَمَا كُنْتَ فِيهِمْ أَوْحَدًا كَانَ أَوْحَدًا
 هُوَ الْجَدُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أَخْتَهَا
 وَحَتَّى يَكُونَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدًا^(٢)
 فَيَا عَجَبًا مِنْ دَائِلٍ أَنْتَ سَيِّفُهُ
 أَمَا يَتَوَقَّى شَفَرَتِي مَا تَقْلُدَا

(١) يجتاب: يلبس. المسوح: ثياب من الشعر.

(٢) الجد: الحظ.

(٣) الدائل: صاحب الدولة.

وَمَنْ يَجْعَلِ الضَّرْعَامَ لِلصَّيْدِ بَازُهُ
تَصِيدُهُ الضَّرْعَامُ فِيمَا تَصِيدَا
رَأَيْتَكَ مَحْضَ الْحَلْمِ فِي مَحْضِ قَدْرَةٍ
وَلَوْ شِئْتَ كَانَ الْحَلْمُ مِنْكَ الْمَهْنَدَا
وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ
وَمَنْ لَكَ بِالْحَرِّ الَّذِي يَحْفَظُ أَلْيَدَا
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتُهُ
وَلَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّثِيمَ تَمْرَدَا
وَوَضَعَ النَّبَى فِي مَوْضِعِ السِّيفِ بِالْعُلَى
مَضْرُوءَ كَوْضَعِ السِّيفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
وَلَكِنْ تَفُوقُ النَّاسَ رَأْيَا وَحِكْمَةً
كَمَا فُقِّتَهُمْ حَالًا وَنَفْسًا وَمَحْتَدَا^(١)
يَدُقُّ عَلَى الْأَفْكَارِ مَا أَنْتَ فَاعِلُ
فَيَتْرُكُ مَا يَخْفَى وَيُؤْخِذُ مَا بَدَا
أَزَلَّ حَسَدَ الْحَسَادِ عَنِّي بِكِبَنِهِمْ
فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسَدَا
إِذَا شَدُّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِيهِمْ
ضَرَبْتُ بِسِيفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ مُغْمَدَا

(١) المحتد: الأصل.

(٢) كبته: أذله.

وما أنا إلا سَمَهْرِي حَمَلْتُهُ
فَزَيْنٌ مَغْرُوضاً وَرَاعٌ مُسَدِّدًا^(١)
وما الدهرُ إلّا من رِوَاةِ قِصَائِدِي
إذا قَلْتُ شعراً أَصْبَحَ الدهرُ مُنْشِداً
فَسَارَ به مَنْ لَا يَسِيرُ مَشْهُراً
وَعَنَى به مَنْ لَا يُغْنِي مُفَرِّداً
أَجْزَنِي إذا أَتَشَدْتُ شعراً فَلِنَمَا
بشعري أَتَاكَ المَادِحُونَ مُرَدِّداً
وَدَعَّ كُلُّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَلِنَنِي
أنا الطَائِرُ المَحْكِي وَالْآخِرُ الصَّدَى
تَرَكْتُ السُّرَى خَلْفِي لِمَنْ قَلُّ مَالُهُ
وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِي بِنِعْمَاكَ عَسْجِداً
وَقَيَّدْتُ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً
وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسَانَ قَيْداً تَقَيَّدَا
إذا سَأَلَ الإِنْسَانُ أَيَّامَهُ الغِنَى
وَكُنْتُ عَلَى بُعْدٍ جَعَلْنَاكَ مَوْعِداً

(١) السمهري: الريح. راع: خوف. مسدداً: موجهاً إلى هدفه.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

مدح المتنبي سيف الدولة، في هذه القصيدة بمناسبة
بنائه للحدث الحمراء. وهي من البحر الطويل

على قَدْرِ أَهْلِ الْعِزْمِ تَأْتِي الْعِزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ
وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صَغَارُهَا
وَتَضْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِظَائِمُ
يُكَلِّفُ سَيْفُ الدَّوْلَةِ الْجَيْشَ هَمَّهُ
وَقَدْ عَجَزَتْ عَنْهُ الْجِيُوشُ الْخَضَارُمُ
وَيَطْلُبُ عِنْدَ النَّاسِ مَا عِنْدَ نَفْسِهِ
وَذَلِكَ مَا لَا تَدْعِيهِ الضَّرَاغِمُ
يُفْدِي أَتَمُّ الطَّيْرِ عَمْرًا سِلَاحَهُ
نُسُورُ الْفَلَا أَحْدَانُهَا وَالْقَشَاعِمُ^(١)
هَلِ الْحَدُثُ الْحَمْرَاءُ تَعْرِفُ لَوْنُهَا
وَتَعْلَمُ أَيُّ السَّاقِيينِ الْغَمَائِمُ^(٢)
سَقَتْهَا الْغَمَامُ الْغُرُقَ قَبْلَ نَزْوِهِ
فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا سَقَتْهَا الْجَمَاجِمُ

(١) القشاعم: المنة.

(٢) الحدث: قلعة بناها سيف الدولة في بلاد الروم. الحمراء: إشارة إلى
كثرة الدماء.

بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
 وموج المنايا حولها متلاطم
 وكان بها مثل الجنون فأصبحت
 ومن جثث القتلى عليها تمائم^(١)
 طريدة دهر ساقها فرددتها
 على الدين بالخطي والدهر راغم
 تفيئت الليالي كل شيء أخذته
 ومن لما يأخذن منك غوارم
 إذا كان ما تنويه فعلاً مضارعاً
 مضى قبل أن تلقى عليه الجوازم
 وكيف تُرجي الروم والروس هدمها
 وذا الطعن آساس لها ودعائم
 وقد حاكموها والمنايا حواكم
 فما مات مظلوم ولا عاش ظالم
 أتوك يجرون الحديد كأنما
 سروا بجياد ما لهن قوائم
 إذا برقوا لم تعرف البيض منهم
 ثيابهم من مثلها والعمائم

(١) التمايم : جمع تيمة وهو التمويذة.

خميسُ بشرق الأرض والغرب زحفهُ
 وفي أذن الجوزاء منه زمازم^(١)
 تجمعُ فيه كلُّ لِسْنٍ وأمةٍ
 فما يُفهمُ الحُدُثَ إلا التراجُمُ^(٢)
 فله وقتٌ ذَوَّبَ الغِشَّ نارهُ
 فلم يَبْقَ إلا صارِمٌ أو ضَبَارِمُ^(٣)
 نَقَطَعَ ما لا يَقْطَعُ الدُّرْعَ والقنا
 وفَرَّ مِنَ الفرسانِ من لا يصادِمُ
 وقفتُ وما في الموتِ شكٌ لواقفٍ
 كأنك في جَفَنِ الردى وهو نائمُ
 تمرُّ بك الأبطالُ كلمى هزيمةً
 ووجْهُكَ وَضَاحٌ وثغركَ باسِمُ
 تجاوزتُ مقدارَ الشجاعةِ والنهى
 إلى قولِ قومٍ أنتَ بالغيبِ عالمُ
 تدوسُ بك الخيلُ الوكورَ على الذرى
 وقد كثرتُ حولَ الوكورِ المطاعُ

(١) خميس: الجيش. الجوزاء: نجمان في وسط السماء. الزمازم: أصوات الرعود.

(٢) اللسن: اللغة. الحداث: المتحدثون.

(٣) فله: الغش والشوائب التي تدخل على المعادن.

نَظَنُ فِرَاحُ الْفُتْحِ أَتُكَ زُرَّتْهَا
بِأَمَاتِهَا وَهِيَ الْعَتَاقُ الصَّلَادُ
إِذَا زَلَقَتْ مَشِيَّتَهَا بِبَطُونِهَا
كَمَا تَمْشِي فِي الصَّعِيدِ الْأَرَاقُ
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ ذَا الدَّمُتُقْ مُقَدِّمُ
قَفَاهُ عَلَى الْإِقْدَامِ لِلْوَجْهِ لَائِمُ
أَيْنَكُرُ رِيحَ اللَّيْثِ حَتَّى يَذُوقَهُ
وَقَدْ عَرَفَتْ رِيحَ اللَّيْثِ الْبَهَائِمُ
وَقَدْ فَجَعَتْهُ بِأَبْنِهِ وَابْنِ صَهْرِهِ
وَبِالصَّهْرِ خَمَلَاتُ الْأَمِيرِ الْغَوَاشِمُ
مَضَى يَشْكُرُ الْأَصْحَابَ فِي فَوْتِهِ الظُّبَى
لَمَّا شَغَلَتْهَا هَامُهُمْ وَالْمَعَاصِمُ^(١)
وَيَفْهَمُ صَوْتَ الْمَشْرِفِيَةِ فِيهِمْ
عَلَى أَنْ أَصْوَاتُ السِّیُوفِ أَعَاجِمُ
يُسَرُّ بِمَا أَعْطَاكَ لَا عَنْ جَهَالَةٍ
وَلَكِنْ مَغْنُومًا نَجَا مِنْكَ غَانِمُ
وَلَسْتُ مَلِيكًا هَازِمًا لِنَظِيرِهِ
وَلَكِنَّكَ التَّوْحِيدُ لِلشَّرِكِ هَازِمُ

(١) الظبي: حدود السيوف. الهام: الرؤوس. المعاصم: أطراف السواعد.

تَشْرُفُ عَدْنَانُ بِهِ لَا رُبِيعَةً
وتفتخر الدنيا به لا العواصم^(١)
لَكَ الْحَمْدُ فِي الدَّرِّ الَّذِي لِي لَفْظُهُ
فإنك مُعْطِيهِ وإني ناظم^(٢)
وإني لتعدو بي عطايَاكَ فِي الْوَعَى
فلا أنا مَذْمُومٌ وَلَا أَنْتَ نَادِمٌ
على كُلِّ طَيَّارٍ إِلَيْهَا بِرِجْلِهِ
إِذَا وَقَعَتْ فِي مَسْمَعِيهِ الْغَمَاغِمُ^(٣)
ألا أيها السيف الذي لَيْسَ مُقْعَدًا
ولا فِيهِ مُرْتَابٌ وَلَا مِنْهُ عَاصِمٌ^(٤)
هنيئًا لضربِ الْهَامِ والمجدِ والعُلَى
وراجيكَ وَالْإِسْلَامُ أَنَّكَ سَالِمٌ
وَلَمْ لَا يَاقِي الرَّحْمَنُ حَدِيثَكَ مَا وَقَى
وَتَفْلِيقُهُ هَامَ الْعِدَى بِكَ دَائِمٌ^(٥)

(١) عدنان: أبو العرب. ربيعة: قبيلة الممدوح.

(٢) الدر: يعني شعر المتنبي.

(٣) الغماغم: الأصوات المختلفة في الحرب.

(٤) العاصم: المانع.

(٥) تفليق: شق. الهام: الرؤوس.

عيد بأية حال عدت يا عيد

قال أبو الطيب هذه القصيدة عند خروجه من مصر
وهو يهجو فيها كافور الإخشيدي. وهي من البحر الخفيف

عيدُ بأية حالٍ عدتُ يا عيدُ
بما مضى أم لأمرٍ فيك تجديدُ
أما الأحبةُ فالبيداءُ دونهم
فلئتُ دونك بيداً دونها بيدُ^(١)
لولا العلى لم تجبُ بي ما أجوب بها
وجناء حرفٍ ولا جرداء قيدود^(٢)
وكان أطيّب من سيفي مُعانقهُ
أشباهُ رونقهِ الغيدُ الأماليد^(٣)
لم يترك الدهرُ من قلبي ولا كبدي
شيئاً تُتيمُهُ عينٌ ولا جيدُ^(٤)
يا ساقيتي أحمُرُ في كؤوسكما
أم في كؤوسكما هم وتسهيّد

(١) البيداء: الفلاة.

(٢) جاب: اجتاز، قطع. الوجناء: الناقة السريعة. الحرف: الصلبة.
الجرداء: القصيرة الشعر. القيدود: الطويلة العنق.

(٣) الغيد: جمع غيداء وهي المثنية ليناً. الأماليد: جمع املودة: المستوية القوام.

(٤) تيمه: استعبده الحب. الجيد: العنق.

أصخرة أنا؟ ما لي لا تحركني
 هذي المدام ولا هذي الأغاريد^(١)
 إذا أردتُ كَمَيْتَ اللونِ صافيةً
 وجدتها وحبیبُ النفسِ مفقودُ^(٢)
 ماذا لقيتُ من الدنيا وأعجبهُ
 أني لما أنا شاكٍ منه محمودُ
 أمسيتُ أروحُ مُثِرِ خازنًا وبدأ
 أنا الغنيُّ وأموالي المواعيد
 إني نزلتُ بكذابين ضيفهم
 عن القرى وعن الترحال محدود^(٣)
 جودُ الرجال من الأبدى وجودهم
 من اللسان فلا كانوا ولا الجود
 ما يقبضُ الموتُ نفساً من نفوسهم
 إلا وفي يدهِ مِنْ نَتْنِها عودُ
 أكلما اغتالَ عبدُ السوء سَيِّدَهُ
 أو خانهُ فَلَهُ في مصرَ تمهيدُ^(٤)

(١) المدام: الخمر. الأغاريد: الأغاني.

(٢) الكميت: الأحمر يميل إلى السواد، كناية عن الخمرة.

(٣) القرى: القيام بواجب الضيف.

(٤) التمهيد: التسهيل والتبسيط.

صارَ الْخَصِيَّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا
 فَالْحُرُّ مُسْتَعْبِدٌ وَالْعَبْدُ مَوْلُودٌ^(١)
 نَامَتْ نَوَاطِيرُ مَصْرِ عَنْ ثَعَالِبِهَا
 فَقَدْ بَشَّمْنَ وَمَا تَفْنَى الْعِنَاقِيدُ
 الْعَبْدُ لَيْسَ لِحُرٍّ صَالِحٍ بِأَخٍ
 لَوْ أَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحَرِّ مَوْلُودٌ
 لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَا مَعَهُ
 إِنْ الْعَبِيدُ لَأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدٌ^(٢)
 مَا كُنْتُ أَحْسِبُنِي أَحْيَا إِلَى زَمَنِ
 يُسَيِّءُ بِي فِيهِ عَبْدٌ وَهُوَ مُحَمَّدٌ
 وَلَا تَوَهَّمْتُ أَنْ النَّاسَ قَدْ فَقِدُوا
 وَأَنْ مِثْلَ أَبِي الْبَيْضَاءِ مَوْجُودٌ^(٣)
 وَأَنْ ذَا الْأَسْوَدَ الْمُثْقَبَ مِشْفَرُهُ
 تُطِيعُهُ ذِي الْعَضَارِيطِ الرُّعَادِيدُ^(٤)
 جَوْعَانٌ يَأْكُلُ مِنْ زَادِي وَيَمْسِكُنِي
 لَكِي يُقَالُ عَظِيمُ الْقَدْرِ مَقْصُودٌ

(١) الآبق: الهارب من سيده.

(٢) المناكيد: جمع منكود وهو قليل الخير.

(٣) أبي البيض: كناية عن تحقير كافور والاستهزاء به.

(٤) المشفر: شفة البعير. العضاريط: مفردا عضروط وهو الذي يخدم بطعامه. الرعاديذ: مفرد رعديذ وهو الجبان.

وِلْمَهَا خَطَّةً وَيُلْمَ قَابِلَهَا
 لِمَثَلِهَا خُلِقَ الْمَهْرِيَّةُ الْقَوْدُ^(١)
 وَعِنْدَهَا لَذَّ طَعْمِ الْمَوْتِ شَارِبُهُ
 إِنْ الْمَنِيَّةُ عِنْدَ الذَّلِّ قَنَدِيدُ^(٢)
 مِنْ عَلَّمَ الْأَسْوَدَ الْمَخْصِيَّ مَكْرَمَةً
 أَقْوَمُهُ الْبَيْضُ أَمْ أَبَاؤُهُ الصَّيْدُ^(٣)
 أَمْ أُذْنُهُ فِي يَدِ النِّخَاسِ دَامِيَّةٌ
 أَمْ قَدْرُهُ وَهُوَ بِالْفَلَسِينِ مَرْدُودُ^(٤)
 أَوَّلَى اللَّثَامِ كَوَيْفِيرُ بِمَغْذِرَةٍ
 فِي كُلِّ لُؤْمٍ، وَبَعْضُ الْعُذْرِ تَفْنِيدُ^(٥)
 وَذَاكَ أَنْ الْفَحُولَ الْبَيْضَ عَاجِزَةٌ
 عَنْ الْجَمِيلِ فَكَيْفَ الْخِصْيَةِ السَّوْدُ^(٦)

(١) وِلْمَهَا: للتعجب وأصلها: وَيْ لِمَاها. الخطَّة: الأمر، الشأن. المَهْرِيَّة:

الإبل المنسوبة إلى قبيلة مهرة من حيدان.

القود: جمع أقود وهو الطويل الظهر.

(٢) لَذَّ: امتطاب. القنديد: عسل قصب السكر والخمر.

(٣) الصَّيْد: جمع أصيد وهو الملك العظيم.

(٤) النخاس: تاجر العبيد.

(٥) اللثام: الناقصون لخصه. كويفير: تصغير كافور للتحقير. التفتيد: اللوم

والتفريع.

(٦) الخصىة: جمع خصى.

تمتع من سهاد أو رقاد

نالت الحمى أبا الطيب في مصر فقال هذه القصيدة واصفاً لها وعارضاً ما عاناه من آثارها وذاكراً ميله إلى الرحيل عن مصر وكان نظم هذه القصيدة في ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة، وهي من البحر «الوافر».

مَلُومٌ كَمَا يَجِلُّ عَنِ الْمَلَامِ
وَوَقَعُ فِعَالِهِ فَوْقَ الْكَلَامِ
ذَرَانِي وَالْفَلَاةُ بِلَا دَلِيلِ
وَوَجْهِي وَالْهَجِيرَ بِلَا لُثَامٍ^(١)
فَلَانِي أَسْتَرِيحُ بِذِي وَهَذَا
وَأَتَعَبُ بِالْإِنَاخَةِ وَالْمَقَامِ
عُيُونُ رَوَاحِلِي إِنْ حِرْتُ عَيْنِي
وَكُلُّ بُغَامٍ رَازِحَةٍ بُغَامِي^(٢)
فَلَقَدْ أَرَدُ الْمَيَاةَ بِغَيْرِ هَادٍ
سِوَى عَدِّي لَهَا بَرْقُ الْغَمَامِ
يُذِمُّ لِمَهْجَتِي رَبِّي وَسِيفِي
إِذَا اخْتَجَّ الْوَحِيدُ إِلَى الذُّمَامِ

(١) ذراني: أتركاني. الهجير: حر الهاجرة.

(٢) البغام: صوت الناقة إذا قطعت الجنين ولم تمده. رازحة: ساقطة من التعب.

ولا أُنسي لأهل البُخلِ ضيفاً
 وليس قرئ سِوى مُخِ النُّعامِ
 ولَمَّا صارَ وُدُّ الناسِ خِيباً
 جَزَيْتُ على ابتسامِ بابتسامِ^(١)
 وصرتُ أشكُ فيمن أصطفيه
 لعلمي أَنَّهُ بعضُ الأنامِ
 يُحِبُّ العاقلونَ على التَّصافي
 وَحُبُّ الجاهِلينَ على الوسامِ
 وَأَنفٌ مِن أَخِي لأبي وأمي
 إذا ما لم أَجِدْهُ من الكرامِ
 أرى الأجدادَ تَغْلِيها كثيراً
 على الأولادِ أخلاقُ اللئامِ
 ولستُ بقانعٍ من كُلِّ فضلٍ
 بأنْ أعزى إلى جَدِّ هُمَامِ
 عَجِبْتُ لِمَن لهُ قَدْ وَحَدُ
 وينبو نبوةَ القُضيمِ الكَهَامِ
 وَمَنْ يَجِدُ الطريقَ إلى المعالي
 فلا يَذُرُّ المطيَّ بلا سِنَامِ^(٢)

(١) الود: المحبة، الخب: الخداع.

(٢) السنام: الحذب البارز في البعير.

ولم أر في عيوبِ الناسِ شيئاً
 كنقصِ القادرينَ على التمامِ
 أقمتُ بأرضٍ مضرَ فلا ورائي
 تخبُّ بي الركابُ ولا أمامي^(١)
 وملئني الفراشُ وكان جنبي
 يملُ لقاءهُ في كُلِّ عامِ
 قليلُ عائدي سقمُ فؤادي
 كثيرُ حاسدي صعبُ مرامي
 غليلُ الجسمِ ممتنعُ القيامِ
 شديدُ السكرِ من غيرِ المُدامِ
 وزائرتي كأن بها حياة
 فليس تزورُ إلا في الظلامِ
 بذلتُ لها المطارفَ والحشايا
 فعافتها وباتت في عظامي^(٢)
 يضيقُ الجلدُ عن نفسي وعنهما
 فتوسعه بأنواعِ السقامِ

(١) تخب: تسير بشكل معين. الركاب: الإبل.

(٢) المطارف: الأودية الثمينة من الخبز. والحشايا جمع حشية وهي الفراش المحشو.

كَأَنَّ الصَّبْحَ يَطْرُدُهَا فَتَجْرِي
 مَذَامِغُهَا بِأَرْبَعَةِ سِجَامٍ (١)
 أَرَاقِبُ وَقَتِّهَا مِنْ غَيْرِ شَوْقٍ
 مُرَاقِبَةُ الْمَشْوَقِ الْمُسْتَهَامِ
 وَيَضْدُقُ وَغَدُمَا وَالصَّدَقُ شُرٌّ
 إِذَا أَلْقَاكَ فِي الْكُرْبِ الْعِظَامِ (٢)
 ابْنَتُ الدَّهْرِ عِنْدِي كُلُّ بِنْتٍ
 فَكَيْفَ وَصَلَتْ أَنْتِ مِنَ الزُّحَامِ (٣)
 جَرَحْتَ مُجْرَحًا لَمْ يَبْقَ فِيهِ
 مَكَانٌ لِلسَّيْفِ وَلَا السُّهَامِ
 أَلَا يَا لَيْتَ شِغْرِ يَدِي أَتُمْسِي
 تَصْرُفُ فِي عِنَانٍ أَوْ زِمَامٍ (٤)
 وَهَلْ أُرْمِي هَوَايَ بِرَاقِصَاتٍ
 مُحَلَاةٍ الْمُقَاوِدِ بِاللِّفَامِ
 فَرُبُّتَمَا شَفِيتُ غَلِيلَ صَدْرِي
 بِسَيْرٍ أَوْ قَنَاةٍ أَوْ حُصَامِ

(١) السجام: المنسكة.

(٢) الكُرب: جمع الكُرب وهو المصاب والفيق.

(٣) بنت الدهر: مصيته.

(٤) زمام الأمر: مقوده. العنان: اللجام.

وضاقت خَطَّةً فخلصتُ منها

- خلاص الخمر من نسج الفِدام^(١)
وفارقتُ الحبيبَ بلا وداعٍ
وودعتُ البلادَ بلا سلامٍ
يقولُ لي الطبيبُ أكلتُ شيئاً
وداؤك في شرابك والطعام
وما في طِبِّهِ أنِّي جوادُ
أضرُّ بجسمِهِ طولُ الجَمَامِ^(٢)
تعوذُ أن يُغَبَّرَ في السرايا
ويدخل من قَتَامٍ في قَتَامٍ^(٣)
فأَمْسِكَ لا يُطالُ له فيرعى
ولا هوَ في العَلِيقِ ولا اللِّجَامِ^(٤)
فإن أمرض فما مرض اصطباري
وإن أُحَمِّمَ فما حُمٌّ اعتزامي^(٥)

(١) الفدام: المصفاة التي توضع على فوه الإبريق وهي من القماش.

(٢) الجمام: الراحة.

(٣) السرايا: جمع سرية وهي الفرقة من الجيش ويختلف عددها حسب تركيب الجنود وبرامج قياداتهم.

(٤) لا يُطال له: لا يرضى له الحبل لينمكن من الرعي، والضمير إلى الحصان.

(٥) الإصطبار: من الصبر: القدرة على التحمل والثبات. أُحَمِّمَ: أصاب بالحمى. الإعتزام: التصميم.

وإنْ أَسْلَمَ فما أَبْقَى ولكن
 سلمت من الْجَمَامِ إلى الْجَمَامِ^(١)
 تمتنع من سُهادٍ أو رُقَادٍ
 ولا تأملُ كرى تحت الرُّجَامِ^(٢)
 فإنْ لثالِثِ الحالين معنى
 سوى معنى انتباهك والمَنَامِ^(٣)

(١) الجمَام: الموت. فهو إن سلم من الموت بسبب الحمى فلن ينجو منه بسبب اقتحامه للأهوال والأخطار.

(٢) السهاد: السهر وعدم النوم، الأرق. الكرى: النعاس. الرجَام: جمع رجمة ويقصد بها حجارة القبر بعد أن يموت.

(٣) ثالث الحالين: الموت.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
عصر المتنبي	٥
١ - الناحية السياسية	٥
٢ - الناحية الثقافية	١٣
٣ - الحياة الإجتماعية	٢٠
أبو الطيب المتنبي :	٢٤
اسمه، مولده، كنيته، لقبه، نسبه، حياته :	٢٤
المرحلة الأولى من حياة المتنبي (٣٠٣ - ٣٣٦ هـ)	٣٣
المرحلة الثانية من حياة المتنبي (٣٣٧ - ٣٤٦ هـ) في	
رحاب سيف الدولة	٤٤
المرحلة الثالثة من حياة المتنبي (٣٤٧ - ٣٥٠) في	
رحاب كافور	٥٢
المرحلة الرابعة من حياة المتنبي (٣٥٠ - ٣٥٤ هـ) في	
العراق وفارس	٦٠
ديوان أبي الطيب وشعره	٦٩
فن القصيدة عند المتنبي	٩١

آراء بعض القدامى والمحدثين في شعر أبي الطيب

١٣٣	وأخلاقه
١٣٩	نماذج من شعر المتنبي
١٣٩	عش عزيزاً
١٤٣	ما المجد إلا السيف
١٤٨	وإذا أتتك مذمتي
١٥٥	لا افتخار إلا لمن لا يضام
١٦٠	لكل امرئ من دهره
١٦٥	على قدر أهل العزم
١٧٠	عيد بأية حال
١٧٤	تمتع من سهاد